الهيئة العامة السورية للكتاب

الطَّريق

الشَّاقَّةُ إلى المِيَاه

تصميم الغلاف

عبد الله القصير

الهيئة العامة السورية للكتاب

الطَّريق الشَّاقَّةُ إلى المِيَاه

تأليف: ليندا سو بارك

ترجمة: لبانة علي الجندي

الهيئة العامة السورية للكتاب

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٣م

العنوان الأصلي للكتاب:

A Long Walk to Water

الكاتب : Linda Sue Park

الناشر : Paperback,2011

المترجم: **لبانة علي الجندي**

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر **(**بالضرورةِ**)** عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها**.**

الطرق الشاقة إلى المياه / تأليف ليندا سو بارك ؛ ترجمة لبانة علي الجندي . - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٣م .- ١٢٨ص: ٢٥سم .- (المشروع الوطني للترجمة. الرواية العالمية).

١- ٨٢٣ ب ار ط ٢- العنوان ٣- بارك ٤- الجندي
٥- السلسلة

مكتبة الأسد

كتبت عنها الصحفية كاتي باڤو / Kate Pavao:

«صُنِّفَ الكتاب في وسائل الإعلام المعروفة ضمن فئة الخمس نجوم. كما أُثمّن الكتاب لشجاعة سالڤا، وعزمِه في نضالاتِه».

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

مُقَدِّمَة

الطريق الشّاقّة إلى المياه

هي رواية قصيرة، للكاتبة ليندا سو بارك، نُشِرت في عام ٢٠١٠م. وفيها قِصّة واقِعِيّة عن سالڤا دوت، السودانيُّ المشرّد، أحد أبناء قبيلة الدِّنْكا[١]، بدأت عام ١٩٨٥م. والقصّة المتخيّلة عن نايا، الفتاة القروية من قبيلة النُّوَيْر[٢]، بدأت عام ٢٠٠٨م.

الكاتبة

ليندا سو بارك

استخدمت بارك هذا الكتاب كخطة لدعم برنامج دوت:

«جمعية المياه من أجل السودان»

الهيئة العامة السورية للكتاب

---

(١) الدّنكا: هي أكبر جماعة إثنية في جنوب السودان، وأكثرها انتشاراً جغرافياً، وترى أن منطقة أبيي تخصّها. **(المترجمة)**

(٢) النُّوَيْر: قبيلة في السودان / على خلاف، وصراع مع قبيلة الدّنكا. **(المترجمة)**

الهيئة العامة
السورية للكتاب

مقدمة المترجمة

مع بداية الحجْر المنزلي بسبب جائحة كورونا ١٩ - COVID عام ٢٠٢٠، كنت في غرفةٍ دافئة في القرية، أبدّد الوقت بالمطالعة، في كتب ورقية، وأخرى بالبحث في الانترنت، حيث التنوّع غير المتوفر واقعياً. وتوجّهت للبحث عن روايات باللغة الإنكليزية علّي أجد ما يشدّني لترجمته خلال الوقت الذي لم يكن ليتوفّر لي في زحمة العمل بالترجمة القانونية، بعد أن استقلت من وظيفتي كموجّهة اختصاصيّة للّغة الإنكليزية في مدينتي، طرطوس.

قمت بتحميل عدد من الكتب، ومنها روايات باللغة الإنكليزية، بقصد البدء بالترجمة، رغم عدم اتفاقٍ مسبق مع دور نشر محدّدة لذلك. وحين قرأت هذه الرواية، وجدْت ما لفتني بموضوعها، إنسانياً، واجتماعياً.

فمعاناة هذا الشاب التي خرج منها بأهمية دوره، ليس فقط كفرد في بناء مستقبله، بل في خدمة أهله، حيث انتماءه الأول، وقد تجاوز كل الاختلافات والعداوة التي صُنعت بين قبيلة ينتمي إليها بحكم الموروث، الدّنكا وقبيلة أخرى في السودان النُّوير، وما حصل من قتال وتمرد وتهجير... إلخ.

واستقرّ تفكيره في ندرة مياه الشرب لدى لجميع هناك. فحياته ضمن أسرة أمريكية من البيض، وهو الزّنجي، طبعاً بعيداً عن سياسة الحكام في

أمريكا، والتي علينا تمييزها عن المجتمع الأمريكي، جعلته يتخلّص من النظرة العدائية للغير المختلف عنه، مهما يكن.

وهكذا كان المشروع الأهم لديه هو تأمين مياه الشرب لمناطق عدّة في السودان، وذلك من خلال جمعيّة خيريّة شكّلها في أمريكا، حيث عائلته المضيفة، بمساعدةِ أصدقاء للعائلة، وبدراسة علميّة لتنفيذه.

فالكاتبة التي لا تنتمي تاريخيّاً إلى السودان، وجدت نفسها متعاطفة إنسانيّاً مع ما قدّمه سالفا لبلده، مما دفعها لكتابة هذه الرواية الممتعة حقيقةً، من ناحية، والهامّة، من ناحية أخرى، لِما لها من أثرٍ في دعم ذلك المشروع الإنساني، الذي سيساهم في ردم الخلاف بين القبيلتين، وغيرهما في السودان، كما نأمل.

المترجمة

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الأول

جنوب السودان - ٢٠٠٨

كان الذَّهابُ سهلاً...

ذَهَبَتْ...

الوعاءُ البلاستيكي الّذي تَحملُه، فيه هواء فقط. طويلٌ بالنسبة لها كَفتاةٍ في الحاديةَ عشرة من عمرها. كانت نايا تنقل الوعاء من يدٍ لأخرى، أو تُؤرجِحُه جانباً، أو تُمسكه بكلتا يديها. أو كان يمكنها حتى أن تجرَّه خلفها، فيرتَطِمُ بالأرضِ، مثيراً سحابة صغيرة من الغُبار مع كلّ خطوة.

كان الوزن خفيفاً في طريق الذّهاب. الجوّ حارّ، إذ سخن الهواء بفعل حرارة الشمس، مع أن الوقت كان ما يزال مبكراً، قبل الظهيرة. سوف تستغرق الرحلة نصف مدّة الصباح، إن لم تتوقف في طريقها. الحرارة... والوقت... والأشواك!

جنوب السودان/ ١٩٨٥

جلس سالڤا على المقعد، ورجلاهُ متصالبتان، ونظرُه مثبّتٌ إلى الأمام، مكتّفاً يَدَيْهِ، مُسنِداً ظهرَه إلى الخلف باستقامة تامّة. كلّ ما فيه كان يثير انتباه المدرّس - كل شيء؛ ما عدا عينيهِ وعقلَه.

كانت عيناه ترفلان باتّجاه النافذة، حيث يرى الطريقَ منها، طريقَ العودة إلى البيت. فبعد بضعِ دقائقَ... دقائق قليلة، سيكون سائراً عليه.

تابع المعلّم الدّرس على نحوٍ رتيبٍ حول اللغة العربية. كان سالڤا يتحدّث لغة قبيلة الدّنكا في بيته. لكنّه تَعَلّمَ العربية في المدرسة، اللغة الرسمية لحكومة السودان الممتدة حتى الشمال. كان سالڤا تلميذاً نجيباً حتى ميلاده الأخير، إذ بلغ الحادية عشرة من العمر. كان يعرف الدَّرسَ مُسبقاً، لذا تراه شارداً في الطريق البعيد عنه.

كان سالڤا يَعي كم هو محظوظٌ، كونُه قادراً على الذهاب إلى المدرسة. لم يكن ليحضُر الدروسَ طَوالَ العام، لأن عائلته كانت مضطرةً للانتقال من قريتهم في فصلِ الجفاف. لكنّه، في فصل الأمطار كان بإمكانه أن يمشي إلى المدرسة؛ مسافة نصف ساعة من منزله.

كان والدُ سالڤا رجلاً ناجحاً. لديه كثيرٌ من قِطْعانِ الماشِيَة، وكان مختاراً للقرية، وهي مكانة محترمة ومرموقة. لدى سالڤا ثلاثة إخوة وأختان. وما إن يبلغ الولدُ منهم سِنّ العاشرة، حتى يلتحق بالمدرسة. وقد سبقه أخواه الأكبر منه، آريك، ورينغ، في الدخول إلى المدرسة، والعام الماضي أتى دور سالڤا. أما أختاه، آكيتا وأغنيس، كباقي الفتيات في القرية، فلم تلتحقا بالمدرسة، بل مكثتا

مع والدتها التي ستعلّمها تدبيرَ المنزل. غالباً ما كان سالڤا سعيداً بذهابه إلى المدرسة، لكن هناك رغبة لديه لو كان يبقى في البيت ويرعى القطيع.

وكان هو وأخواه، مع إخوته من أبيه لزوجاته الأخريات، يمضون بالقطيع إلى مناطقَ آبارِ المياهِ، حيث الكلأ الجَيّد. وتتوزع المسؤوليات بينهم حسب أعمارِهم. فأخوه الأصغر، كول، كان يهتم ببقرة واحدة فقط؛ وكأخويه من قبله، سوف يعتني بأكثر من ذلك كل عام. وقبل أن يصبح سالڤا في سنّ المدرسة، كان قد ساعد بالاهتمام بكل القطيع، وبأخيه الصغير كذلك.

كان على الأولاد أن يحرسوا القطيع، لكن البقر، حقيقةً، لا تحتاج إلى المزيد من الرعاية. لهذا كان لديه وقتٌ كافٍ للّعب.

كان سالڤا والأولاد يشكّلون بقراتٍ من الطين، وكلما شكّل أحدُهُم العدد الأكبر، عُدَّ الأغنى بينهم، شرط أن يَكُنَّ جَيّدات شكلاً وصحّةً. وكان تشكيل الطينِ يستغرقُ وقتاً طويلاً ليصبح على شكلِ بقرة جيدة. كان هناك تحدٍّ بين الأولاد؛ من منهم يستطيع أن يشكل العدد الأكبر والأفضل من البقرات!

وأحياناً أخرى كانوا يلهون بالقوسِ والسِّهام لديهم، يطلقونها على الحيوانات الصغيرة والطيور. ومن هذه الناحية لم يكونوا موفّقين، لكن قد يحالفهم الحظ من حين لآخر.

كانت تلك من أفضل الأيام. حينما كان يتمكن أحدهم، وهو في سنّ البلوغ، من قتل ابن عرس، أو أرنب، أو دجاجة غينيا، أو قُبّرة، يتوقف اللّهو عند الأولاد، وفجأة يصبح هناك المزيد من العمل. فيقوم بعضهم بجمع الحطب ليضرموا موقد النار، وآخرون يتولّون مَهَمّةَ تنظيف الحيوان وتتبيله، ومن ثَمّ يشوونه على النار.

لم يكن أيّ من هذه الأعمال يمضي بسلاسة. فكما كان لسالفا رأيه الشخصي حول كيفية بناء الموقد، كذلك كل من الصبية الآخرين لهم آراؤهم.

«يجب أن يكون الموقد أكبر»

«لا، فهو كبير هكذا»

«أسرعوا، اقلبوه على الوجه الآخر قبل أن يحترق»

كان السائل يتقطّر، ويئزّ في النار، والرائحةُ الشهية تملأ الهواء.

وفي النهاية، لم يكونوا يتحملون الانتظار أكثر. كان هناك ما يكفي لكل ولد بأن يحصل على بضع قضّاتٍ من الشواء، وكم كانت لذيذة!

ابتلع سالفا ريقه، وأدار عينيه نحو المدرّس. تمنّى حينئذٍ لو لم يتذكّر تلك اللحظات، التي جعلته يشعر بالجوع... الحلييييب.

عندما عاد إلى البيت، تناول وعاءً من الحليب الطازج الذي كان سيملأ به معدته بينما حان وقت العشاء.

كان يعرف كيف يحصل ذلك. ستنهض أمُّهُ من عملها إلى طاحونةِ الطعام، وتسير حول البيت باتجاه الطريق المؤدي إليه، ترفع إحدى يديها لتظلل عينيها من أشعة الشمس، باحثةً عنه. سوف يراها من بعيد، بالغطاء البرتقالي على رأسها، فيلوّح لها بيديه. وحالما يصل البيت، سوف تدخل لتُحْضِرَ وعاءَ الحليبِ الذي كانت قد أعدّته مسبقاً له.

«طق... طق... طق... طق... طق...!»

وصلت أصواتٌ من الخارج. هل هو صوت إطلاق رصاص، أو مجرّد احتراق محرك سيارة؟

توقف المدرّس عن الكلام، بينما اتجهت رؤوس جميع من في القاعة نحو النافذة.

لا شيء.... صمتٌ...!!

صوت نحنحة المدرّس عاد ولفت انتباه التلاميذ إلى مقدمة الصف، وتابع درسه من حيث توقف.

إذن- - - - -

«*طق طق طق طق!* بوم بوم «*طق طق طق طق!*»

إطلاق رصاص!

صرخ المدرّس: «*الجميع... انزلوا أرضاً*»

تحرك بعض التلاميذ وهم يُخفون رؤوسهم، ويحنون ظهورهم. بينما جلس الآخرون جامدين، بعيونٍ وأفواهٍ مفتوحة. وكان سالما مرعوباً، يغطي رأسه بيديه، ويجول بنظره من طرفٍ إلى آخر.

شق المدرّس طريقه بمحاذاة الحائط إلى النافذة. استرق نظرة سريعة إلى الخارج. توقف الرصاص، لكن الناس كانوا يصرخون ويركضون.

فقال المدرّس بصوتٍ خافتٍ وحازم: «*اذهبوا جميعاً بسرعة، إلى الأحراج. أتسمعونني؟ وليس إلى البيوت. لا تركضوا باتجاه البيوت. لأنهم سوف يتجهون إلى القرية... ابتعدوا عن القرية... ابقوا في الأحراج*».

ذهب باتجاه الباب، ونظر خارجاً مرةً أخرى.

«*انطلقوا الآن! كلّكم... جميعاً*»

كانت الحرب قد بدأت قبل عامين. لم يكن سالما يعرف عنها الكثير، لكنه علم أن المتمرّدين من القسم الجنوبي من السودان، حيث كان يعيش

هو وأهله، يقاتلون ضد الحكومة التي كانت متمركزة في الشَّمال. فمعظم سكان الشمال من المسلمين، والحكومة تبغي أن يكون كامل السودان بلداً مسلماً - تُتّبع فيه تعاليم الإسلام.

لكن شعب الجنوب كان مختلفاً دينياً، ولم يريدوا أن يُجبَروا على اتباع الدين الإسلامي. فكان الصراع من أجل الاستقلال. وانتشر الصراع حول السودان الجنوبي، والآن امتدّ إلى حيث كان يقيم سالفا.

تكتّل الأولاد بعضهم حول بعضٍ ومنهم من كان يبكي. بينما يسرع المدرّس في إخراجهم من الباب.

كان سالفا قريباً من مؤخرة الرتل، وبدأ يشعر بدقات قلبه المتسارعة تخنق حنجرته وأذنيه. كان يريد الصُّراخَ،

«يجب أن أذهب إلى البيت! يجب أن أذهب إلى البيت!» لكن الكلمات وقفت في حَنْجَرتِه المخنوقة.

وعندما وصل إلى الباب، نظر خارجاً. كان الجميع يهرولون - رجالاً، وأطفالاً... والنساء يحملْنَ صغارهنّ. الهواء يعلوه الغبار الناجم عن وقع أقدام كل هؤلاء المهرولين. وبعض الرجال كانوا يصرخون ويلوّحون ببنادقهم.

كل ذلك لمحه سالفا بنظرة خاطفة. ثم ركض أيضاً... ركض بأقصى ما استطاع إلى الأحراج.

ابتعَدَ عنْ بَيْتِه!

* * *

الفصل الثاني

جنوب السودان/ ٢٠٠٨

وضعت نايا الوعاءَ جانباً، وجلستْ على الأرض. كانت تحاول دائماً ألّا تسير على النباتات الشائكة التي تنمو على طول الطريق، لكنّ أشواكها كانت تملأ الطريق.

نظرت أسفل قدمها. ها هي، شوكة كبيرة قد انكسرت تماماً وسط كعبها. فجمّعت نايا الجِلْدَ حول الشّوكةِ وضَغَطَتْهُ، ثم تناولت شوكة أخرى لتستعينَ بها في انتزاع الشوكة من كعبها، وهي تعض على شفتيها لكي تتحمل الألم.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

جنوب السودان/ ١٩٨٥

بووووووووووم!

استدار سالڤا، ونظر إلى الخلف، إذ ارتفعت سحابةُ دخانٍ كبيرة. واللَّهب يتناثر من قاعدتها. وعلى المدى، كانت هناك طائرةٌ نفّاثة تتلاشى، مبتعدة كطائرٍ شرّيرٍ أملس.

ولم يستطع قطُّ أن يرى بناء المدرسة في خضمِّ الدخان والغبار. تعثّر، وأوشكَ أن يقع. لا وقْت للنظر خلفاً. تباطأَ قليلاً، وخفض رأسه، ثمّ ركض.

ركض حتى نَفَدَتْ طاقتُه، ثم مشى. وبقي لساعاتٍ عِدّة، حتى شارفت الشّمس على المغيب.

كان الناس الآخرون يركضون أيضاً. كانوا كُثُراً، بحيث زاد العدد على أولاد مدرسة القرية، ويبدو أنهم قَدِموا من أنحاء المنطقة كلِّها.

وبينما كان سالڤا يسير، كانت الأفكار نفسها ترافقه مع كل خطوة.

(إلى أين نحن ذاهبون؟ أين أهلي؟ متى سأراهم ثانية؟)

وعندما حلَّ الظلام، ولم يعد هناك مجال لرؤية الطريق، توقف الناس عن المشي. في البداية تجمّعوا بعضهم حول بعضٍ مضطّربين، ويتحدثون بِرُعْبٍ، بِصَوْتٍ خافتٍ ومشدود. ثم تجمّع بعض الرجال، وتحدثوا بعضهم إلى بعضٍ قليلاً. ثم نادى أحدهم:

«حَسَبَ القرية - تَجَمّعوا حسب قُراكم. سوف تجدون من تعرفونهم».

تلفّت سالڤا حوله، حتى سمع تلك الكلمات: «لون-اريك! قرية لون-اريك، هنا».

شيء من الارتياح عَلا روحَه. إنها قريته! فأسرع باتجاه الصوت.

نحو العشرات، أو ما قارب، من الناس قد وقفوا متفرقين إلى جانب الطريق. تفحّص سالڤا وجوههم. لم يكن هناك أيٌّ من أهله. تعرّف بعضَ الوجوهِ - سيّدةً وطفلَها، ورجلين، وفتاةً شابة - ولكن ما من أحدٍ يعرفه تماماً. لكنّ رؤيتهم كانت مصدر راحةٍ بالنسبة له.

قَضَوا الليلة في ذلك المكان، على جانب الطريق، والرجال يتناوبون الحراسةَ. وتابعوا الطريق في صبيحة اليوم التالي. كان سالڤا وسط مجموعة قريته لون-آريك. وفي وقت مبكر من بعد الظهيرة، شاهد في البعيد مجموعةَ جنود.

تناقل الحشد الخبر: «*إنهم المتمردون*». المتمرّدون الذين كانوا يقاتلون ضد الحكومة.

مرّ سالڤا ببعض الجنود المتمرّدين الذين كانوا على جانبِ الطريق، منتظرين وبيد كل منهم بُندقيةٌ كبيرة. لم تكن بنادِقُهُم موجّهَةً صوبَ النّاس، ومع ذلك كانوا يَظهرونَ بِمَظهرِ المترقّبِ الشَّرِسِ. وانضمّ بعضُهم إلى خلفيّة الحشد، بحيث أصبحوا يحيطون بالقرويين.

«*ماذا سيفعلون بنا؟ أين أهلي؟*»

وصل القرويون إلى معسكر المتمردين في وقت متأخر من ذلك اليوم. وأمرهُم الجنْدُ أن يتفرقوا في مجموعتين: الرجال ضمن مجموعة، والنساءُ والأطفالُ والمسنّون ضمن مجموعة أخرى. ويبدو أن الفِتْيان كانوا يُعتبرون

من الرّجال؛ لأن الأولادَ الذين كانوا أكبرَ من سالڤا قليلاً، انضمّوا إلى مجموعةِ الرّجال.

تردّد سالڤا قليلاً. هو يبلغ الحاديةَ عشرة، فقط، لكنّه ابنُ عائلة مهمّة. إنه *سالڤا معوان دوت آريك*، ومن قرية سُمِّيَتْ على اسم جدّه. لطالما كان والدُه يطلب منهُ أن يتصرّف كالرجال - ويحذو حذْوَ إخوته الأكبر منه، وهو بدوره اتخذه كول قدوة له. وبذلك، تقدّم سالڤا بضعَ خطواتٍ من الرّجال.

«هيييي!»

اقترب جنديٌّ من سالڤا، ورفع بندقيته. تجمّد سالڤا. كل ما كان يمكن أن يراه هو فوهةُ البندقيةِ الضّخمة، سوداءُ لامعة، حيث تحركت باتجاهِ وجهه. لامسَ طَرْفُ فوهتِها ذقنَهُ. ارتخت ركبتا سالڤا. أغمضَ عينيه. *«إن متُّ الآن، فلن أرى أهلي ثانيةً»*.

هذه الفكرة عزّزت قوته إلى حدٍّ ما، بحيث حَمَتْهُ من السّقوطِ مرعوباً. أخذ نَفَساً عميقاً، ثم فتح عينيه. كان الجنديّ يحمل البندقية بيدٍ واحدة. لم يكن هدفه؛ بل استخدمها ليرفع بها ذقن سالڤا ليُمْعِنَ النّظرَ إليه بوضوحٍ أكثر.

«إلى هناك!» قالها الجندي وهو يوجّه بندقيته نحو مجموعة النساء والأطفال.

لستَ رجلاً بعْد. لا تتسرّع هكذا. ضحكَ، وأمسكَ سالڤا من كَتِفَيْه.

فما كان من سالڤا إلا أن يُهرع نحو جهة النساء.

تحرك الجنود في اليوم التالي من المعسكر. وأُجبِر الرجال على حمل العُدَّةِ؛ من بنادقَ، ومدافعَ، وقنابلَ وأجهزة الراديو. كان سالڤا يرقُب أحدَ الرجال،

عندما رفض أن يذهب مع المتمرّدين. ضَرَبَهُ أحدُ الجنودِ بِكَعْبِ البندقية على وجهه. فسقط أرضاً وهو ينزف. وبعد ذلك لم يعترض أحد. فحمل الرجال المعدّات الثّقيلة، وغادروا المعسكر.

عاد الجميع للسّير مرةً أخرى. وذهبوا بالاتجاه المعاكس للمتمرّدين، لأن هناك قتالاً حيث المتمرّدون. بَقِيَ سالڤا مع مجموعة قرية لون-اريك. إذ أصبحت أقل الآن، بدون الرجال. وسالڤا هو الولد الوحيد ماعدا الأطفال الصغار.

وفي ذلك المساء وجدوا حظيرة ليقضوا الليلَ فيها. ألقى سالڤا بنفسه على العشب المثير مستلقياً، قلقاً.

(إلى أين نحن ذاهبون؟ أين أهلي؟ متى سأراهم ثانية؟) واستغرق وقتاً طويلاً ليخلد إلى النوم.

* * *

حتى إن سالڤا قبل أن يكون صاحياً تماماً، كان يَشْعُرُ أن هناك شيئاً ما ليس على ما يرام. استلقى ساكناً تماماً، مُغْمَضَ العينين، محاولاً أن يستشعر ما يمكن أن يكون.

جلس أخيراً، وفتح عينيه.

لم يكن هناك أحدٌ في الحظيرة.

نهض سالڤا واقفاً بسرعة، لدرجة أنه شعر بالدُّوّار.

اندفع باتجاه الباب... لا أحد... لا شيء... تركوه... كان وحيداً.

* * *

الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل الثالث

جنوب السودان/ ٢٠٠٨

بينما كانت نايا تقترب أكثر، كانت البقعة الضبابية في الأفق قد اكتسبت تَلَوُّناً، فتحولت من الرماديّ الضبابيّ إلى الأخضر الزّيتيّ. وقد تحول التراب تحت قدميها إلى وحل، ثم طين، فَغَدَتْ تخبُّ بالماء حتى كاحلها.

كانت هناك حياةٌ، نوعاً ما، حول البِرْكَةِ؛ فبعض الناس الآخرين، الذين كانوا في الغالب من النساء والفتيات اللواتي أَتَيْنَ لكي يملأْنَ أوانيهنَّ، إضافة إلى أنواع متعددة من الطيور ترقص وتغرد وتزقزق، وقطعان الماشية التي أحضرها الصِّبْيَة الذين يقومون برعايتها إلى المرعى.

تناولت نايا قَرعَتَها[1] التي ربطتها إلى يد الآنية البلاستيكية. فكّتها، وغَرَفَت بها من المياه الموحلة، وشَرِبَت قَرعتين حتى ارتوت.

كانت نايا تغرف الماء على طول الطريق حتى امتلأ الإناء. ثم تناولت قطعة القماش المبطنة من جيبها المطوية على شكل كعكة، ووضعتها على رأسها، ثم رفعت الإناء الثقيل وثبّتَتْهُ فوقها.

---

(١) القَرْعَة: وعاء من نبات القرع المجفّف، يُستعمَل محلياً في نقل المياه. (المترجمة)

كانت نايا تعرف أن طريق العودة إلى البيت، بتوازن الماء فوق رأسها، وقدمها التي كانت ما تزال تؤلمها من وخز الشوكة، سوف تستغرق طويلاً، أكثر منها عند قدومها. لكنها ربما تصل عند الظهيرة إذا جرت الأمور على ما يرام.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

جنوب السودان/ ١٩٨٥

كانتِ الدموعُ حارّةً جداً في عيني سالفا. أين ذهب الجميع؟ لماذا غادروا دون أن يوقظوه؟

عَرِفَ الجواب: لأنه كان طفلاً، يمكن أن يتعب بسهولة ويُربِكَهم ببُطئه، ويشكو من الجوع، ويتسبب بالإزعاج بشكلٍ ما.

«لم أكن لأتسبب بأي إزعاج - لم أكن لأشكو... ماذا يمكنني أن أفعل الآن؟»

تقدم سالفا بضع خطوات ليرى ما يمكن رؤيته. وفي الأفق البعيد، كانت الشمس ضبابية من دخان القنابل. أمامه، وعلى بعد مِئة خطوة، تمكّن من رؤية بِركة صغيرة. وهناك بيت بين البركة والحظيرة - نعم - امرأة تجلس تحت أشعة الشمس.

حَبَسَ أنفاسَهُ، واقترب منها زاحفاً حتى رأى وجهها. فنمطُ الوَشْمِ على جبينها مألوفٌ؛ إنه الدّنكا، وهذا يعني أنها من قبيلة سالفا نفسها.

التقط سالفا أنفاسه بارتياح. فقد كان سعيداً لأنها ليست من النُّوَيْر، لأن هناك صراعاً تاريخياً بين القبيلتين؛ النُّوَيْر، والدّنكا. وعلى ما يبدو، لا أحد يعلم أين تنتهي أرض النُّوَيْر، وأين تبدأ أرض الدّنكا، ولذلك كانت كل قبيلة منهما تحاول ادّعاء مِلْكِيّةِ الأراضي الأكثر غنىً بالماء. وعبر السّنين، جَرَت عدة معارك، كبيرة وصغيرة، بين القبيلتين، ومات العديد من البشر من الطرفين.

ولكنها ليست كالحرب الدائرة الآن بين المتمرّدين والحكومة. فالدّنكا، والنُّوَيْر في صراعٍ أزليّ فيما بينها منذ أكثر من أربعمئة عام.

نظرت المرأة إلى الأعلى، فرأته. جَفِلَ سالقا منها. (*هل ستكون ودودة مع الغريب؟ هل ستغضب منه لأنه قد قضى الليلة في حظيرتها؟*)

لكنه، على الأقل، لم يعد وحيداً. وتلك حقيقة، كانت تلك المرأة أقوى مما يمكن أن تفعل، أو تقول له.

مشى نحوها، وحيّاها بصوتٍ مرتجفٍ: «*صباح الخير يا خالتي*».

ردّت تحيّته بإيماءةٍ. كانت عجوزاً، أكبر سناً بكثير من والدته.

كان يترقّب ساكناً، حتى تكلّمه. وقالت أخيراً:

«***أنت جائعٌ بالتأكيد***» وقفت، ودخلت البيت. ثمّ عادت بعد بضع دقائق، وأعطته حَفنَتَين من الفستق النّيِّئ، وعادت لتجلس ثانية.

«*شكراً يا خالة*» قالها وهو يجلس القرفصاء بجانبها، وبدأ يقشر حبات الفستق ليأكلها. وكان يمضغ كل حبة منها على مهلٍ حتى يبتلعها، بحيث تدوم في فمه قدر المستطاع.

جلست المرأة صامتة، حتى انتهى منها. ثم سألته: «*أين أهلُك؟*»

فتح سالقا فمه ليتكلم، لكنّ عينيه اغرورقتا بالدموع، ولم يستطع أن يجيب.

قطّبت جبينها، وقالت: «*هل أنت يتيم؟*»

هزّ رأسه بسرعةٍ. ولِلَحْظَةٍ شعر بالغضب نوعاً ما.

(***لم يكن يتيماً! لديه أبٌ وأمٌ - لديه أهلٌ!***)

«كنت في المدرسة. هربت من القتال. لا أعرف أين أهلي الآن»

أومأت برأسها: *«لعينة هذه الحرب. ماذا ستفعل الآن - كيف ستجدهم؟»*

لم يكن لدى سالڤا أي ردّ. تمنى لو كان لدى المرأة أي جواب له، فهي امرأة بالغة. على العكس، كان لديها الكثير من التساؤلات فقط.

كل شيء انقلب رأساً على عَقِب.

بقي سالڤا تلك الليلة أيضاً في حظيرة المرأة. وبدأ يضع خطة.

(ربما أتمكّن من البقاء هنا حتى ينتهي القتال، فأعود إلى قريتي وأجد أهلي).

كان يبذل جهده في إحضار الحطب للموقد من الأحراج، والماء من البركة. لكن البركة بدأت تشحّ؛ بحيث أصبح من الصعب مِلْءَ القَرعات.

أثناء النهار، كان يسمع انفجارات القنابل من المدفعية المقاتلة على مسافة بضعةِ أميالٍ.

مع كل انفجار قنبلة، كان يفكر بأهله، آملاً أن يكونوا بخير، وهو يتساءل يائساً، متى سيلتقيهم ثانيةً.

وفي اليوم الرابع أخبرته المرأة بأنها سوف ترحل.

«أنت رأيت أن البركة تحولت إلى مجرد وحل الآن. والشتاء قادم، وفصل الجفاف. وهذا القتال، و....

أشارت برأسها نحو أصوات الانفجارات. *«سوف أرحل إلى قرية أخرى قريبة من الماء. فبقاؤك معي لم يعد ممكناً».*

حدّق سالڤا بها، كوردة ذابلة. *(لماذا لا يمكنني الذهاب معها؟)*

وعادت المرأة للحديث قبل أن يسألها بصوت مسموع. «*سوف يتركني الجنود وشأني، كامرأة عجوز، وحدها. لكن الأمر أكثر خطورة لو رافَقْتَني*».

هزّت رأسها بحنانٍ وقالت: «*آسفة لأنني لم أعد أستطيع مساعدتك. وحيثما اتجهتَ، تأكد من أنك تتوجّه مبتعداً عن القتال*»

عاد سالڤا مترنّحاً إلى الحظيرة. «*ماذا سأفعل! إلى أين سأذهب؟*» وكانت الكلمات تتردد بذهنه آلاف المرات. كان الأمر غريباً - فقد عرف المرأة منذ بضعة أيام فقط، لكنه الآن لا يتخيل كيف سيتصرف بعد أن ترحل.

جلس داخل الحظيرة، محدقاً في الخارج... في لاشيءٍ. وكلما حلَّ الظلام أكثر، عَلَتْ أصوات صخب الليل، أزيز الحشرات، وحفيف أوراق الشجر اليابسة، وأصوات أخرى... أصوات؟

التَفَتَ سالڤا نحو الصوت. نعم، إنها أصوات. بعض الناس يمشون باتجاه البيت - مجموعة صغيرة، أقل من العشرات. أخذ سالڤا نَفَساً طويلاً حالما اقتربوا.

استطاع رؤية وجوه من اقتربوا منه في النور الخافت. كان اثنان منهم يحملان شارة V على جَبْهَتَيْهِما. أيضاً علامة الدّنكا - ذلك النمط الذي كان يُمنَح للأولاد في قرية سالڤا، كجزء من طقوسِ إعلان بلوغهم.

هؤلاء الناس هم دنكا أيضاً! هل يمكن أن يكون أهلُه بينهم؟

* * *

الفصل الرابع

جنوب السودان / ٢٠٠٨

تناولت والدةُ نايا وعاءَ الماءِ البلاستيكي من ابنتها، وأفرغت محتواه في ثلاثة أباريق كبيرة. وناولت نايا زبدية وجبة الذُّرَة المغليّة، وسكبت فوقها القليل من الحليب.

جلست نايا خارج المنزل، في ظلّه، لتتناول وجبتها، وأعادت الزّبدية إلى الداخل بعد أن انتهت منها. كانت أمها تعتني بأخيها الصغير. ثم قالت الأم: *«خذي آكير معكِ»*، وأشارت إلى أخت نايا الصغرى.

لم تفصح نايا عمّا كانت تفكر به عندما استرقت نظرةً إلى أختها الصغرى: *(أن آكير ذات السنوات الخمس، صغيرة جداً، وتمشي ببطءٍ شديد)*.

قالت الأمُّ: *«هي بحاجة لأن تتعلم»*

أومأت نايا. تناولت الوعاء البلاستيكي، وأمسكت آكير بيدها.

وكان على نايا أن تقوم برحلتها الثانية إلى بركة الماء، لذا سوف تستغرق العودة إلى البيت طويلاً حتى تعود لتأكل. ستسير إلى البركة ذهاباً وإياباً مرتين - أي النهار بطوله. كان هذا روتينها اليومي، سبعة أشهر في السنة. يومياً، حُكماً كلّ يومٍ.

* * *

جنوب السودان/ ١٩٨٥

حبس سالڤا أنفاسه وهو يتفحّص الوجوه، واحداً تلوَ الآخر. ثم أطلقَ زفيره بكلّ ما فيهِ منْ أملٍ.

الجميع غرباء. لا أحد من أهله.

أتت العجوز من خلفِه، وحيّت الجموع، وسألت: «*إلى أين ستذهبون؟*»

بعض الناس تبادلوا نظراتٍ مضطربة. ولكن... بلا ردّ.

وضعت المرأة يدها فوق كتف سالڤا وقالت: «*هذا الولد وحيد. هلاّ أخذتموه معكم؟*»

رأى سالڤا الرّيبة على وجوههم. وبدأ عدد من الرجال في المقدمة الحديث فيما بينهم.

«*إنه طفل. سوف يبطّئ حركتنا*».

«*فمٌ آخر جائع، ونحن نؤمّن الطعام بصعوبة*».

«*إنه صغير جداً ليقوم بأي عمل - سوف يكون عِبْئاً علينا*».

طأطأ سالڤا رأسه. سوف يتركونه ثانية، كما تركه الآخرون...

ثم أتتِ امرأة من بين الجموع. تقدمت ومسكت ذراع أحد الرجال. لم تقل شيئاً، بل نظرت أولاً إلى الرجل، ثم إلى سالڤا.

أومأ الرجل، ثم التفت إلى الجموع قائلاً: «*سوف نأخذه معنا*».

نظر إليهم سالڤا بسرعة. كان بعضهم يهزّون رؤوسهم محتجّين.

فقال الرجل مستهجناً: «*هو من الدّنكا!*» وعاد للمشي.

أعطت العجوز كيساً من الفستق لسالڤا، وقرعة لمياه الشرب. فشكرها، وودّعها. ثم التحق بالمجموعة، مصمّماً بألاّ يتخلّف عنهم، ولا يتذمّر، ولا يكون مصدر إزعاج لأيٍّ منهم. حتى إنه لم يسألهم إلى أين سوف يذهبون، خوفاً من أن تكون أسئلته غير مستحبّة.

ما عرفه فقط هو أنهم من الدّنكا، وأنهم يحاولون أن يكونوا بمنأىً عن الحرب. عليه أن يكون واثقاً من ذلك. أصبحت الأيام عبارة عن مسيرٍ لا نهاية له. كانت قدما سالڤا متزامنة مع ما كان يدور في ذهنه؛ الكلمات نفسها، مراراً وتكراراً:

«أين أهلي؟ أين أهلي؟»

كان يصحو كل يوم، ويسير معهم، يستريح في منتصف النهار، ثم يعود للسير ثانية حتى حلول الظلام. كانوا ينامون على الأرض. فقد تحولت الأرض من أحراجٍ إلى خشب يابسٍ؛ وكانوا يسيرون بين أعمدة الأشجار الذابلة. لم يكن هناك ما يمكن أَكْلُهُ، إلا ما ندر: بعض الفواكه هنا وهناك، وكلها إما غير ناضجة، أو فاسدة من الديدان. كان كيس الفستق مع سالڤا قد نفد مع نهاية اليوم الثالث.

وبعد نحو أسبوع انضمَّت إليهم مجموعة أخرى - من الدّنكا، وبعضٌ من قبيلة تدعى (جور-كول). رجالٌ ونساء، أولادٌ وبنات، شيوخٌ وشباب، كلهم يمشون... ويمشون... يمشون إلى اللّامكان...

لم يسبق لسالڤا أن شعر بمثل هذا الجوع. كان يتعثّر طول الطريق، فقدماه يعثر بعضهما ببعضٍ، ولا يرى الطريقَ الذي يسير عليه، أو الغابةَ من حوله، أو نورَ السماء من فوقِه. لم يكن هناك شيءٌ حقيقيّ عدا جوعَه، الذي كان فراغاً في معدته في البداية، لكنه أصبح الآن طنيناً عميقاً مؤلماً في كل أنحاء جسمه.

كان يمشي عموماً بين مجموعة الدّنكا، لكنه، اليوم، سقط، وهو يتعثّر في حالة غثيان خلفهم. وكان الشاب الذي يسير بقربه من قبيلة جير-كول. لم يكن سالفا يعرف عنه الكثير، سوى أن اسمه بوكسا.

وبينما كان الجميع يسيرون، تمهّل بوكسا. تساءل سالفا متباطئاً فيما إذا كان عليهما أن يحاولا اللّحاقَ بهم بشكل أفضل قليلاً.

ثم توقف بوكسا عن السير، وكذلك سالفا أيضاً. لكنه كان واهناً، وجائعاً ليسأل لماذا توقفا ساكنين.

طوّق بوكسا رأسه، وقطّب حاجبيه مصغياً. وقفا ساكنَين بضع دقائق. كان سالفا ما يزال يسمع صخبَ باقي المجموعة أمامهم، وبعضَ الأصوات الخافتة، وزقزقة العصافير في مكان ما داخل الشجر... شنّف أذنَيه. ما هو؟ طيارة نفاثة؟ قنابل؟ هل كان إطلاق الرصاص يقترب بَدَل أن يبتعد؟ وبدأ خوف سالفا يتزايد حتى أصبح أكبر من جوعه. ثمّ...

«آآآآآآآه» وعَلَتِ ابتسامة صغيرة على وجه بوكسا. «*هناك. هل تسمع؟*»

عَبَسَ سالفا، وهزّ رأسه.

«*نعم. ها هي ثانية. تعال!*» وبدأ بوكسا السير.

أشار إلى الأعلى باتجاه أغصان الشجرة. «*إنها خلية نحل... وكبيرة!*»

فأسرع سالفا منادياً باتجاه باقي المجموعة. سبق أن سمع بهذا، أن الجور - كول يمكنهم أن يتتبّعوا نداء الطيور، دليل العسل! لكنّه لم يشهدْه حقيقة قط من قبل.

العسل! هذه الليلة ستكون وليمة بالنسبة لهم.

الفصل الخامس

جنوب السودان / ٢٠٠٨

كانت هناك بحيرة كبيرة على مسافة ثلاثة أيام سيراً على الأقدام من قرية نايا. وعندما يتوقف المطر كل عام، وتجفّ البركة القريبة من القرية، ينتقل أهل نايا من منزلهم إلى خيمة بالقرب من البحيرة الكبيرة. فهم لم يعيشوا بالقرب من هذه البحيرة طوال العام بسبب القتال. وغالباً ما كانت قبيلتها، النُّوَيْر، تتصارع مع متمرّدي قبيلة الدّنكا من أجل الأرض المحيطة بالبحيرة. فقد تأذّى الرجال والأولاد، حتى إنَّ بعضهم قُتِل في الصراع بينهما. لذلك كانت عائلة نايا تمكث قرب البحيرة فقط خلال الأَشْهُرِ الخمسة من فصل الجفاف، بينما تنشغل القبيلتان في الكفاحِ من أجل العيش، إذ يكون القتال حينها متباعداً.

وكما جفَّت البركة قرب منزلهم، كذلك جفّت البحيرة هناك. لكن، كونُ البحيرة أكبر، كانت أرضُها الغضاريّة ما تزال تحتفظ بمخزونٍ من المياه.

وكان عمل نايا قرب البحيرة هو ذاته؛ إحضار المياه: تحفر حفرة بيديها في الطين الرطب بأرض البحيرة كي تجمع المياه. تحفر ثم تجمع الطين بيديها حتى تصبح الحفرة بعمق ساعدها. ويزداد الطين رطوبة، حتى تنفذ المياه أخيراً في قعر الحفرة.

كانت المياه التي تملأ الحفرة متّسِخة، أقرب إلى الوحل منها إلى السائل. تنفذ ببطء، فتستغرق وقتاً طويلاً حتى تجمع منها ولو قرعةً واحدة. فتنحني نايا إلى الحفرة وتنتظر.

تنتظر الماء، ولساعاتٍ. وكل يوم طيلة الخمسة أشهر، حتى يأتي المطر، لتعود هي وأهلها إلى ديارهم.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

جنوب السودان / ١٩٨٥

كانت عينا سالڤا مُغْمَضَتَين مُتورِّمَتين. وذراع بوكسا الأمامية كانت حمراءَ متورّمة. وأحد أصدقاء بوكسا كانت شفتُه أيضاً منتفخة. فكلهم بدوا وكأنّهم خارجون من مُشاجَرَة.

لكن أذيّتَهُم لمْ تَكُن كَدَماتٍ، وإنما مجرّد لَسعاتِ النّحل.

أضرموا النّار تحت الشجرةِ لكي يصعد دخانها إلى النحل، فتخرج من خلاياها وتتخدر. ولكن بينما كان بوكسا، وبعض الرجال الآخرين من الجور-كول، يزيحون الخلية من الشجرة، استنفر النحل غاضباً لاكتشافِ مأواهم وقد أزيح من مكانه على الشجرة. عادوا وعبّروا عن غضبهم بأن احتشدوا وملؤوا المكان بأزيزِهم ولسعاتهم الكثيرة.

إنها تستحق ذلك، هكذا فكّر سالڤا عندما لمس عينيه بحذرٍ شديد. كان بطنه قد انتفخ ممتلئاً بالعسل وشمع النحل. لا شيء يضاهي طعمه تلك القطع من أقراص العسل، التي كانت تقطّر حلاوة ذهبية، وافرة وشهية. ومثل باقي أفراد المجموعة، فقد أكل حتى لم يعد قادراً على تناول المزيد-بل زاد قليلاً.

الجميع من حوله كانوا يَلْعَقون أصابعهم بكثير من الرضا، إلا رجلاً من الدّنكا، فقد كانت لسعة النحل كبيرة في لسانه، فتورّم كثيراً، حتى إنه لم يَعُدْ باستطاعتِهِ إغلاقُ فَمِهِ، فكان يَبْلَعُ بِصعوبَة.

أَسِفَ سالڤا لأجله. لم يستطع ذلك المسكين حتّى أن يَتَذَوّقَ العَسل.

بدا السّير أسهل الآن، بعد أن وجد سالقا ما يملأ بطنه به. وقد استطاع أن يحتفظ أخيراً بقطعةٍ من شمع العسل، ولفّها بعناية في ورقة. ومع نهاية اليوم الثاني كان العسل قد نفدَ كله، لكن سالقا أبقى على قطعة شمع العسل في فمه، ليمضغها ويشعر بحلاوتها.

كانت المجموعة تزداد عدداً في كل يوم ينضم إليها آخرون - أولئك الذين كانوا يسيرون بمفردهم، ضمن مجموعات صغيرة من اثنتين، أو ثلاث. وكان سالقا قد اتخذ عادة استكشاف كامل المجموعة كل صباح ومساء، يبحث عن أهله. لكنهم لم يكونوا بين القادمين الجدد قطّ.

وفي أحد المساءات، بعد بضعة أسابيع من التحاق سالقا بالمجموعة، قام بمشواره المعتاد حول موقد النار، يتفحّص كل الوجوه، آملاً أن يرى أيّ وجه مألوف له. ثم...

«أوخخخخخ»

كان سالقا قد فقد توازن قدميه تقريباً، وكأن الأرض قد زلزلت تحته. كان ولد قد قفز على قدميه ووقف أمامه.

«هييي! إنها يدي التي دهستها!» كان الولد يتكلم الدّنكا، لكن بلهجة مختلفة، وهذا يعني أنه ليس من المنطقة المجاورة لقرية سالقا.

تراجع سالقا خطوة إلى الخلف. «*آسف. هل آذيتك؟*»

فتح الولد يديه وأغلقهما عدة مراتٍ، ثم هزّ كتفيه. «*لا بأس. لكن من المفترض أن تنتبه لخطواتك*».

«*آسف*» كرّر سالقا أسفه. وبعد لحظة صمت، استدار مبتعداً، وتابع استطلاع الوجوه ثانيةً.

كان الولد لا يزال يرقبه. وسأله: «*أهلك؟*»

هزّ سالڤا رأسه.

«*وأنا أيضاً*»، قالها الولد، وتنهّد تَنْهيدةً، سمعها سالڤا حتى لامست قلبه.

تلاقت عيناهما... «*أنا سالڤا*».

«*وأنا ميريال*». كم جميل أن نكون أصدقاء.

كان ميريال بنفس عمر سالڤا، وبنفس الطول تقريباً. وعندما يمشيان، كانت خطواتهما متوافقة تماماً. وفي اليوم التالي أصبحا يسيران معاً.

سأله سالڤا: «*هل تعلم إلى أين نحن ذاهبون؟*»

رفع ميريال رأسه للأعلى، ويده فوق حاجبيه ليظلّل عينيه من الشمس المشرقة. «*شرقاً*». قال بجدّيّة. «*نحن نسير في شمس الصباح*».

دوّر سالڤا عينيه وقال: «*أعلم أننا نسير باتجاه الشرق، أي واحد يمكن أن يعرف ذلك. ولكن إلى أين نحو الشرق؟*»

فكَّر ميريال للحظة وقال: «*إلى إثيوبيا. شرقيّ السودان هي إثيوبيا*».

فكَّر سالڤا، وقال لنفسه:

(*لا يمكنني أن أذهب إلى بلد آخر. لأنني لو فعلت، لن يستطيع أهلي العثور عليّ أبداً...*)

وضع ميريال يده فوق كتف سالڤا. يبدو أنه كان يعلم بماذا يفكر سالڤا، لأنه قال له:

«لا فرق. ألا تعلم أننا إذا تابعنا السير شرقاً، سوف ندور طول الطريق حول العالم، ونعود هنا إلى السودان؟ عندئذٍ نجد أهلنا!»

ضحك سالڤا مُكْرَهاً، بل ضحكا معاً، بينما كانا يتابعان السير، يداً بيد، وخطواتهما متوافقة تماماً.

مضى أكثر من شهر على مغادرة سالڤا لمدرسته إلى الأحراج. وكانت المجموعة تسير الآن في أرض شعب الأتوت.

وفي لغة الدّنكا، كانوا يطلقون على الأتوت *«شعب الأُسُودْ»*. منطقتهم كانت مأهولة بالظّباء، والوحوش البرية، والنوثيتل الأفريقي - والأُسُود التي تفترسها. الدّنكا كانوا يروون القصص عن شعب الأَتوت. فعندما مات شخص أتوت عاد إلى الأرض على شكل أسد، شَرِهٌ للّحم البشري، الذي كان عليه من قبل. ويقال إنّ الأُسود في منطقة الأتوت هي الأكثر وحشيّة في العالم. أصبحت الليالي قاسية. كان سالڤا يصحو غالباً على أصوات زئير الأسود في البعيد، أو صوت استغاثة الموت من الحيوان الذي بين فكيه.

وفي صباح أحد الأيام استيقظ وعيناه مغشيتان من الأرق. فركهما، ونهض، ثم حشر نفسه خلف ميريال حالما بدؤوا السير ثانية.

«سالڤا؟»

لم يكن صوت المتكلم ميريال. أتاه الصوت من خلفهم.

استدار سالڤا. فتح فاه مندهشاً، لكنه لم يستطع الكلام.

«سالڤا!»

* * *

الفصل السادس

جنوب السودان / ٢٠٠٨

كان أهل نايا يأتون إلى خيمة البحيرة على مدى أجيال. ونايا نفسها كانت هناك منذ ولادتها. والشيء الوحيد الذي كانت تحبه في الخيمة، رغم أنها كانت ملزمة بالحفر في الطين كي تحصل على الماء، هو أنها لم تكن مضطرة لتقوم بالرحلتين الطويلتين كل يوم. لكنها أدركت هذا العام أن والدتها كرهت الخيمة.

لم يكن لديهم منزل، وإنما كانوا ينامون في مأوىً متنقِّل. وليس باستطاعتهم أن يجلبوا معهم معظم أغراضهم، لذا كان عليهم أن يتدبروا أمرهم بما هو متوفر، مهما يكن، ويقضوا معظم النهار في الحَفْرِ من أجلِ الماء.

لكن الأسوأ كانت تلك النظرة على وجه والدتها عندما يذهب كل من والد نايا وأخيها الأكبر، ديب، إلى الصيد. الخوف!! كانت أمها خائفة. تخاف من أن يصادف رجال العائلة أحداً من قبيلة الدّنكا، في مكان ما، فيتقاتلون، ويتأذون - وربما أسوأ من ذلك. كانوا محظوظين طوال تلك الأعوام. إذ لم يكن قد تعرَّض أحد من أهل نايا للأذيَّة، أو القتل. لكنها تعرف عائلات أخرى في القرية فقدوا من يحبون بهذه الطريقة. كانت نايا ترى تلك الأسئلة على وجه أمها كل صباح: هل سيكونون محظوظين مرة أخرى؟

أم إنه دورهم الآن قد أتى كي يفقدوا شخصاً ما؟

* * *

جنوب السودان / ١٩٨٥

مرة أخرى، فتح سالڤا فاهُ، وأغلقهُ كما لو كان سمكة. حاول أن يتكلم، لكن أبى الصوت أن يخرج من حَنْجرته. حاول أن يتحرك... كان يبدو كما لو أن قَدَماه قد تسمّرتا في الأرض.

عاد الرجل ونادى: «*سالڤا؟*» ثم أسرع باتجاهه. وعندما أصبح على بعد بضع خطواتٍ منه، استعاد سالڤا صوته وصرخ: «*عمي!*» ثم هُرع إلى ذراعيه.

كان العم جاوير، الأخ الأصغر لوالد سالڤا. لم يكن سالڤا قد رآه منذ عامين على الأقل، لأن العم كان في الجيش. فقال في نفسه:

(*يجب أن يكون لدى عمي معرفة بالحرب والقتال! وربما يعرف أين هم أهلي!*

ولكن هذه الآمال تلاشت حالما تكلّم العم، وسأله: «*هل أنت وحدك؟ أين أهلك؟*»

وجد سالڤا صعوبة في الإجابة؛ من أين سيبدأ. بدا وكأنّ أعواماً قد مرت مذ فرّ من المدرسة إلى الأحراج. لكنه أخبر عمّه بكل شيء، قدرَ استطاعتِه. وبينما كان سالڤا يتكلّم، كان العم يومئ، أو يهزّ برأسه. وبدا وجهه أكثر وقاراً عندما أخبره سالڤا بأنه لم يرَ، أو يسمع، حتى لو كلمة، عن أهله طيلة تلك الفترة. خَفَتَ صَوْتُ سالڤا، وطَأْطَأَ رأسَهُ. كان مسروراً لرؤية عمّه مرة أخرى،

لكنه على ما يبدو، لن يكون مُعيناً له كذلك. كان العمُّ هادئاً لبعض الوقت، ثم ربّتَ على كتف سالڤا، وقال بصوت مَرِحٍ:

«إيه يا بن أخي...! نحن الآن معاً، سوف أعتني بك...!»

وتبين أن العمَّ كان قد التحق بالمجموعة قبل ثلاثة أيام، ولكن، كَوْنُ المجموعة تجاوزت الثلاثين يسيرون معاً، لم يلتقوا حتى الآن. وحالما بدؤوا السيرَ رأى سالڤا أن عمّه يحمل سلاحاً - بندقية بحزامٍ معلقة على كَتِفِه. واستطاع سالڤا أن يستنتج مسبقاً أن المجموعة كانت تعدُّ عمّه رئيسها، بسبب خِبْرَتِهِ الحَرْبِيَّة، ويملك سلاحاً.

قال العمّ: *«نعم عندما سُرِّحْتُ من الجيش سمحوا لي بأن أحتفظ ببندقيتي. لذا سأقتنص وجبةً شهية لنا حالما أصادف أيّ شيءٍ يُمْكِنُ أَكْلَه»*.

كان عمي صادقاً فيما قال. فقد صاد في اليوم نفسه ظَبْياً صغيراً من نوع (توبي). وكان سالڤا ينتظر بفارغ الصبر حتى يتم سلخه، وتقصيبه، ومن ثم شَيّه. وحالما بدأ الدُّخان، ورائحةُ الشّواءِ تملأ المكان، كان يحاول ابتلاع ريقه اشتهاءً.

كان العم يضحك وهو يرى سالڤا يلتهم أول قطعة لحم بين يديه، وقال له:

«سالڤا! لديك أسنانٌ! من المفترض أن تستخدِمَها!»

لم يستطع سالڤا الردّ، فقد كان منهمكاً في حشو قطعة أخرى من اللّحم المشوي الشهيّ في فمه. ورغم أن التوبي كان صغيراً، كان هناك لحمٌ وافرٌ لكلّ أفراد المجموعة. لكن لم يَطُل الوقت حتى ندم سالڤا على سرعته

في الأكل. فقد تلبّكت معدته بسبب الأكل الكثير بعد عدة أسابيع من الجوع، فقضى معظم الليل وهو يتقيّأ. لم يكن وحيداً عندما أيقظته معدته الممتلئة، فأسرع إلى طرف المخيم لإفراغها، فوجد عدداً من أبناء المجموعة بنفس الحالة. وفي اللحظة نفسها، وجد سالڤا نفسه في رتلٍ من عشرات الأشخاص - كلهم في وقفة متطابقة - ينحنون، ويمسكون مِعَدَهُم، بانتظار الدفعة التالية من الإقياء.

كان يمكن أن يعتبر ذلك مضحكاً لولا أنه في حالةٍ يُرْثى لها.

* * *

تابعت المجموعة السير في أرض الأتوت. وفي كل يوم يرون الأُسُودَ مستلقية كعادتها تحت ظل الشجر. وفي إحدى المرّات رأوا أسداً يطارد توبي؛ حَمَل الظبي. هرب التوبي، لكن سالڤا استطاع أن يرى على طول الطريق عظام الفرائس التي لم يحالفها الحظ في النجاة من براثن الأسد.

ما زال سالڤا وميريال يسيران معاً، بالقرب من عمه. وأحيانا يسير العم مع أناس آخرين، ويتحدث بجدّية عن الرحلة. في هذه الأثناء كانا يتراجعان قليلاً عنهم، باحترام. لكن سالڤا كان دائما يحافظ على أن يبقى عمُّه تحت نظره. وفي الليل كان ينام بقربه.

وفي أحد الأيام انطلقت المجموعة للسير في وقت متأخر من بعد الظهر، أملاً في العثور على بئر ماء قبل أن يمكثوا ليلاً. لكن لم يكن هناك أي مكان فيه ماء، رغم أنهم بَحَثوا عنها لعدة أميال. تابعوا السير، ولمدة عشر ساعاتٍ خلال الليل، حتى شعر الجميع بالإنهاك مع حلولِ الفجر.

قرر حينئذٍ العمّ، والرجال القادة الآخرون، أن الاستراحة ضرورية للجميع. اتخذ سالڤا مكاناً على بعد خطوتين من الطريق، وغفا، حتّى قَبْلَ أن يستلقي.

لم يصحُ حتى شعر بيد عمّه تهزّ كتفيه. وحالما فتح عينيه، سمع عويلاً. بعضهم كان يصرخ. نَفَضَ سالڤا الكرى عن عينيه، ونظر إلى عمّه، ذي الوجهِ الوقورِ جداً. فقال العمُّ بهدوءٍ:

«آسف، يا سالڤا، فصديقك...»

«ميريال؟»

نظر سالڤا حوله. *يجب أن يكون في مكان ما قريب... لا أتذكر إن كان نائماً بقربي - كنت في غاية التعب - ربما ذهب ليجد بعض الطعام-*

مّسد العم رأس سالڤا بيديه كطفل، وكرر قائلاً: *«أنا آسف، يبدو أن قبضة جامدة قد أودت بقلبه»*.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل السابع

جنوب السودان / ٢٠٠٨

جلست نايا على الأرض، وتناولت يد أختها الصغيرة. يبدو أن آكير لم تلحظ ذلك. فقد تكورت على جنبها، وتتحرك بصعوبة، ترقد صامتة، عدا شيء من الأنين من حينٍ لآخر. وقبل يومين فقط، كانت آكير تضجّ طويلاً، شاكية من آلام في بطنها. كان أنينها يقلق نايا كثيراً. والآن شعرت بالذنب، لأنها اكتشفت أن أختها لم تعد تقوى على الشكوى من الألم. كانت نايا تعرف كثيراً من الناس الذين يشكون من ذات الألم، ثم الإسهال، وأحياناً الحمّى، أيضاً. معظم الأطفال الكبار، والبالغين، غالباً يتعافون عندما يصابون بالمرض، على الأقل، يستطيعون العودة إلى العمل، رغم أنهم ربما يعانون الألم لسنوات.

قد يكون المرض خطيراً بالنسبة لكبار السن، والأطفال الصغار، لأن أجهزة الهضم لديهم لا تتحمل أي شيء، فيموتون من الألم، حتى لو كانوا يتناولون الطعام الصحي. وكان عمّ نايا، زعيم قريتهم، يعرف عيادةً طِبّيّة على مسافة أيام سيراً على الأقدام. وقال لعائلة نايا، أنهم لو استطاعوا أن يذهبوا بآكير إليها، سوف يعطيها الأطباء الدواء لمساعدتها كي تتحسن صحتها. لكن رحلة كهذه سوف تكون شاقة بالنسبة لطفلة مثل آكير. يا تُرى، لو مكثوا في الخيمة، وتركوها ترتاح، ربما تشفى بنفسها؟ أو وجب عليهم الانطلاق بذلك الطريق الشاقّ - على أملٍ أن يتمكّنوا من إنقاذها في الوقت المناسب؟

* * *

جنوب السودان / ١٩٨٥

عادوا وانطلقوا مرة أخرى. وكان سالڤا يرتجف رُعباً، من الداخل، والخارج. تعلق بعمّه كطفلٍ صغيرٍ، يمسك بيده، أو بطرف قميصه، عندما يتمكن، ولا يترك عمه أبعد من ذراعه عنه. كان دائمَ النظرِ حوله: فكل حركةٍ، بالنسبة له، هي أسدٌ يزمجر، وكل سكونٍ هو أسدٌ يترقب أن يقفز.

(رَحَلَ ميريال - اختفى في الظلام. من غير المحتمل أنه ابتعد طوعاً عن المجموعة. واختفاؤه لا يمكن أن يعني سوى شيئاً واحداً...)

«أَسَـــــــــــــــــدْ»

أسدٌ، كان شديد الجوع، حتى اقترب من المجموعة وهم نائمون. بعض الرجال كانوا يحرسون، ولكن في ذلك الظلام الدامس، والريح تتماوج بين العشب الطويل، تمكّن الأسد من أن يزحف سريعاً دون أن يراه أحد. فقد بحث عن فريسة صغيرة، وساكنة: ميريال، النائم. وقد أخذه بعيداً، تاركاً خلفه فقط بِضْعَ بُقَعٍ من الدّمِ قُرْبَ الطريق. ولولا عمه، كان سالڤا قد جنّ من الخوف. وكان عمّه يتحدث إليه طوال الصباح بصوتٍ منخفض، هادئ.

«سالڤا، لدي بندقية. وسأطلق النار على أي أسد قد يقترب».

«سالڤا، سأبقى صاحياً هذه الليلة، وأواصل الحراسة».

«سالڤا، سنكون قريباً خارج منطقة الأسود. كل شيء سوف يكون على ما يرام».

تمكن سالڤا من تحريك قدميه، بعد أن أصغى لعمّه، وأسرع ليبقى بقربه، بالرغم من الرعب الذي كان يسري في جسمه بالكامل. لكن لم يكن كل شيء على ما يرام. فهو قد فَقَدَ أهله، والان فَقَدَ صديقه، أيضاً.

(أما مِنْ أَحدٍ كان قد سمع صراخاً أثناء الليل!!)

كل ما كان يأمله سالڤا أن يكون الأسد قد قتل ميريال مباشرة - أي لم يكن هناك وقت ليشعر بالخوف، أو الألم.

* * *

أصبح المنظر أكثر خضرةً، والهواء مشبعاً بالماء. قال العم: «إنه النيل، سوف نصل نهر النيل قريباً، ونعبر إلى الجهة المقابلة».

النيل: هو أطول أنهار العالم. أُمُّ الحياةِ كُلّها في السودان. أوضح العم أنهم سوف يَرِدون النهرَ من جهةٍ أوسَعِ تفرُّعاته. *«حتى إنه لن يبدو كنهرٍ. بل كبحيرةٍ كبيرة. سوف نستغرق وقتاً طويلاً للعبور إلى الجهة المقابلة»*. فهمس سالڤا، وهو ما يزال خائفاً: *«وماذا هناك في الجهة المقابلة؟»*

أجابه عمه: *«الصّحْراء... وبعدها إثيوبيا»*.

امتلأت عينا سالڤا بالدموع. فقد كان ميريال على صواب حول إثيوبيا. *(كم تمنيت لو كان هنا، وأخبره بأنني كنت مخطئاً)*.

وقف سالڤا على ضفّة نهر النيل. هنا، كما سبق أن قال العم، يشكّل النهر بحيرةً كبيرة.

سوف يَعْبُرُ الجميعُ النّهْرَ في قواربَ، كما قال العمّ. سوف يستغرقون يوماً كاملاً ليصلوا إلى الجُزُرِ في وسط البحيرة، ويوماً آخر ليصلوا إلى الشاطئ البعيد.

قطّب سالڤا جبينه. لم يرَ أي قارب في أي مكان. ابتسم العم عندما رأى ذلك التعبير المرتبك على وجه سالڤا، وقال: *«ماذا، ألم تُحضِر قاربك الشخصي؟ إذن، آمل أن تكون سباحاً ماهراً!»*

طأطأ سالڤا رأسه. فهو يعلم أن عمه كان يداعبه، لكنه كان يشعر بالتعب - *«تَعَبٌ من قَلقِهِ على أهله. تَعَبٌ من التفكير بميريال المسكين. تَعَبٌ من السير بلا وجهة واضحة»* أقل ما يمكن أن يفعله العم هو أن يخبره الحقيقة حول القوارب. طوّق العم بذراعه كتفي سالڤا. *«سوف ترى. لدينا عمل كثير لنقوم به»*.

تقدّم سالڤا مترنّحاً بحمل ثقيل آخر من القصب في يديه. الكل مشغول. بعضهم كان منهمكاً في قص نباتات البَرْدي من على أطراف الماء. وآخرون، مثل سالڤا، يقومون بجمع النبات المقطوع، ويأخذونه لبناء القوارب. كان هناك بعضٌ، من بين المجموعة، يعيشون في قراهم قرب الأنهار، أو البحيرات. أي إنهم يعرفون كيف يربطون القصب، وينسجونه بمهارة، فيشكّلون منه زوارقَ مسطحة.

كان الجميع يعملون بسرعة، رغم أنه لم يكن هناك أية طريقة لمعرفة فيما إذا كان عليهم أن يسرعوا، أم لا!! لا سبيل لمعرفة كم هي الحرب قريبة. فالقتال قد يكون على بعد أميال - أو طائرة تحمل قنابل قد تسقط فوق رؤوسهم في أية لحظة.

كانت الحركة هرولة، جيئة وذهاباً، بين هؤلاء الذين يقطعون العشب، وأولئك الذين يحوكونه، عملاً شاقاً. لكن بالنسبة لسالقا كان العمل يساعده على أن يعدّل مزاجه. فقد كان انشغاله بالعمل لا يفسح المجال له للقلق. هناك أكوام هائلة من القصب الرطب، لكن، أفضل من أن تكون بلا عمل.

وفي كل مرة يحضر سالقا القصب، يتوقف بضع دقائق معجباً بمهارة بنّائي الزوارق. فالقصب الطويل يوضع في رزم منسقة، وتربط أطراف كل رزمة مع الأخرى بإحكام. ثم تسحب رزمة القصب جانباً من وسطها لتشكّل تجويفاً، يربط الجانبين على طول مداهِما ليشكّل الجسم الأساسي للزورق. ثم تُضاف طبقاتٌ أخرى من القصب، وتُرْبَط لِتُشَكِّلَ قَعْرَ الزورقِ. كان سالقا يراقب ذلك مذهولاً، إذ كان انحناءُ القاربِ، والأطرافِ السفلية للجوانب، تُبنى رويداً، رويداً من أكوام القصب.

استغرق العمل يومين كاملين لبناءِ زوارقَ تكفي المجموعة. وتم تجريب كل واحدٍ منها؛ بِضْع زوارقَ لم تكن تطفو جيداً، وكانت بحاجة للترميم. لذا تم زيادة رزم القصب، وربطها معاً لصنع المجاذيف.

وأخيراً، صار كل شيءٍ جاهزاً. صعد سالقا أحد الزوارق إلى جانب عمِّه، ورجل آخر. تمسّك بقوة بجوانب الزورق حين انطلق في النيل.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثامن

جنوب السودان / ٢٠٠٨

كان صوت ضحكة آكير أشبه ما يكون بالموسيقا. كان والد نايا قد قرر أن آكير بحاجة إلى الطبيب. لذا رافقت نايا أمها، وذهبتا بها إلى المركز المختص - خيمة بيضاء كبيرة، تكتظ بالمرضى، أو الجرحى، والأطباء، والممرضين لمساعدتهم. وبعد جرعتين من الدواء استعادت آكير عافيتها -نحيلة وضعيفة، لكنها تستطيع الضحك حالما جلست نايا على الأرض قرب سريرها، ولعبت معها لعبة التصفيق.

كانت الممرّضة، ذات البشرة البيضاء، تكلّم الأم، موضحةً لها: *«مَرَضُها سَبَبُهُ المياه. يجب أن تشرب فقط مياهاً نقية. وإذا كانت المياه غير نظيفة، يجب أن تغليها حتى درجة مِئتين قبل أن تشْرَبها»*.

المياه التي نحصل عليها من الحفر في أرض البحيرة هي بكميات قليلة. ولو حاولت الأم أن تغلي تلك الكمية القليلة، سوف يجف الوعاء قبل أن تصل درجة المِئتين.

إذن، من الأفضل لهم أن يعودوا إلى القرية حالاً. فالمياه التي تحضرها نايا من البركة في الوعاء البلاستيكي يمكن غَلْيَها قبل أن يشربوها. ولكن كيف سيكون الحال في العام القادم، عندما يعودون إلى الخيمة؟ والعام الذي يليه؟

وحتى في البيت، كلّما كانت نايا تذهب ذلك المشوار الطويل لإحضار المياه، شربت منها مباشرة حالما تصل إلى هناك. ولن تتمكن من مَنْعِ آكير من أن تفعل الشيءَ نفسه.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

جنوب السودان / ١٩٨٥

كان سطح البحيرة ساكناً، وفور سحب القوارب من الشاطئ، لم يكن هناك ما يُرى - سوى الماء... والماء.

مضت عدة ساعات وهم يجدّفون. كان المشهد والحركة من الرتابة بحيث يجعل سالڤا ينام لولا خوفه من أن يسقط من حافة القارب لو فعل. وكان يلهي نفسه كي يبقى صاحياً، بأن يعدّ أشواط مجذاف عمه، ويحاول أن يقدر المسافة التي قطعها الزورق كل عشرين شوطاً.

وأخيراً، وصلت الزوارق إلى جزيرة في وسط النهر، إذ كان الصيادون في النيل يعيشون ويعملون.

كان سالڤا مذهولاً لما رآه في مجتمع الصيادين. كان ذلك هو أول مكان في مسيرهم، الذي استغرق عدة أسابيع، يكون فيه الطعام وافراً. يأكل القرويون، بالطبع، الكثير من السمك، وحتى لحم فرس النهر، والتمساح، أيضاً. ولكن المدهش أكثر هو المحاصيل التي يزرعونها: الزنجبيل، وقصب السكر، والشمندر... من السهل تنمية المزروعات الغذائية عندما يكون هناك نهر بكامله لريّها.

لم يكن لدى أي من المسافرين أية نقود، أو أي شيء ذي قيمة تجارية، لذا كان عليهم أن يستَجْدوا الطعام، باستثناء العم. فقد قدّم له الصيادون الطعام دون أن يسألَهم. لم يكن سالڤا قادراً على أن يخمّن سبب ذلك؛ هل هو كونه رئيساً للمجموعة، أو لأنهم كانوا يخشون سلاحه!

شارك العم طعامه مع سالڤا - قطعة قصب سكر يمصّها على كامل طولها، ثم السمك الذي كانوا قد طبخوه على النار، والشمندر المشوي في الرماد. كان عصير قصب السكر الذي تناوله سالڤا قد خفف من شدّة جوعه، مما جعله قادراً على أن يأكل باقي الوجبة ببطء، ويمضي وقتاً طويلً بمضغ كل لُقمة.

لم يكن سالڤا يجوع في بيته مطلقاً. فأسرته كانت تمتلك العديد من القِطعان. وكانوا من بين العائلات المميّزة في قريتهم، لون-آريك. كانوا في الغالب يأكلون حساء الذرة والحليب. وكان والدُه يتردّد إلى السوق على دراجته، ويُحْضِر معه أكياس البقول والأرز، التي كانت تُنتَج في مناطق أخرى، لأن مناخ منطقة لون-آريك شبه صحراوي، غير صالح لزراعة بعض المحاصيل. وكنوع من الخصوصية، كان والده يحضر معه المانغو. ويُعدّ كيس المانغو وحده حملاً ثقيلاً، ولا سيما حين تكون الدراجة محمّلة أساساً بحاجياتٍ أخرى. لذا كان يعلّق كيس المانغو بمكابح الدواليب. وعندما كان سالڤا يركض لملاقاته، كان يرى المانغو الأخضر يتأرجح مرحاً، حالما يضغط والده على الدواسة. فيتناول سالڤا قطعة مانغو من المكبح، قبل أن يترجّل أبوه عن الدراجة، وتقشرها له والدته، التي كانت ترتدي شالاً بلون قشرة المانغو الداخلية الحلوة. وتقوم بفصل الشَّحْم من حول البذرة الكبيرة المسطحة، على شكل شرائحَ. كان سالڤا يحب تلك الشرائح الحلوة، لكن الجزء المفضّل لديه هو البذرة. كان هناك الكثير من الفواكه التي تتشبث ببذرتها. فيقضم منها، ويمصّها حتى آخر نتفة بها، فتدوم لساعات. لم يكن هناك مانغو بين مخازن الصيادين، لكن تعلّقه بمصّ قطعة قصب السكر ذكّره بتلك الأوقات السعيدة. وتساءل فيما إذا كان سيرى والده مرةً أخرى؛ يركب الدراجة، وكيس المانغو معلق بمكابحها.

وحالما لامستِ الشمس الأفق، خلد الصيادون فجأة إلى خيامهم. لم تكن فعلياً خيام - بل مجرد ناموسيات بيضاء، مغربلة، للوقاية من البعوض، معلقة فوق رؤوسهم، ويضطجعون داخلها. لم يبقَ أي صياد، ليتحدث، أو يأكل أكثر، أو حتى ليفعل أي شيء. كانوا وكأنهم اختفوا جميعاً في اللحظة نفسها.

بعد بضع دقائق فقط، خرج البعوض من الماء، من بين القصب، من كل مكان على شكل غيومٍ سوداءَ ضخمة، وطنينهُ المرتفع جداً ملأ الهواء. آلاف، وربما ملايين من البعوض الجائع، تجمّعوا بكثافة كبيرة، لدرجة أن سالڤا، لو لم يكن حذراً لامتلأ فمه بمجرّد نَفَسٍ واحد - وبالرغم من أنه كان كذلك، إلا أنّهم انتشروا في كل مكان - في عينيه، في أنفه، في أذنيه، في كل أنحاء جسمه.

مَكَثَ الصيادون في خيامهم طوال الليل. حتى إنهم حفروا قنواتٍ داخل الخيام، لو اضطروا للتبول ليلاً، كيلا يخرجوا من خِيَمِهم الصغيرة. ليس المهم كم مرّة ضرب سالڤا البعوض، أو كم من العشرات قتل منها بضربة واحدة. لأنه على ما يبدو، لو قتل واحدة منهم، لأتى المئات أسراباً كي يأخذوا مكانها. وبسبب صوت طنينها المرتفع، بقي سالڤا طوال الليل وهو يهشّها بيديه، ويحاول تجنبها، بلا جدوى. لم يَنَمْ أي واحد من المجموعة. والبعوض يؤكّد ذلك.

في الصباح، كان سالڤا مغطّى بالعضّات، والأسوأ كانت في منتصف ظهره، تماماً، إذ لا يطال أن يحكّها. مع أنه كان يحكّ تلك التي يطالها حتى أَدْمَتْ.

عاد الرحّالة إلى زوارقهم مرة أخرى، ليجذّفوا من الجزيرة إلى الجهة الأخرى من شاطئ النيل. ونصحهم الصيادون أن يحملوا معهم ماءً وافراً

لرحلتهم التالية. كان سالڤا ما يزال يحتفظ بقرعته التي كانت قد أعطته إياها العجوز. وآخرون أيضاً، من المجموعة لديهم قرعاتهم، أو أواني بلاستيكية. لكن، كان هناك أيضاً من ليس لديهم أيّة آنية. فمزقوا قطعاً من ثيابهم، يائسين، ليحملوا بها بعض الماء على الأقل.

فهناك، على المدى، يقع أصعب جزء في رحلتهم: صحراء آكوبو.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل التاسع

جنوب السودان / ٢٠٠٨

كانت أسرة نايا قد عادت إلى القرية قبل عدة أشهر، عندما أتى الزّوار؛ في الحقيقة، كان قد حان وقت العودة إلى المخيم. حالما توقفت سيارة الجيب، هَرْوَلَ معظم الأطفال لملاقاتها. أما نايا، التي كانت تخجل من لقاء الغرباء، فقد عادت إلى الخلف. نزل رجلان من سيارة الجيب، وتحدثوا للأولاد الكبار، ومن بينهم أخو نايا، ديب، الذي قادهم إلى منزل مختار القرية، عمّهما، هو ونايا.

خرج المختار من منزله ليستقبل ضيوفه. جلسوا في ظل البيت، مع بعضٍ من رجال القرية، وتناولوا الشاي معاً، وتحدثوا قليلاً.

سألت نايا أخاها ديب: *«عمّ يتحدثون؟»*

أجابها ديب: *«شيء ما يتعلق بالمياه»*.

المياه؟ أقرب مورد للمياه هو البركة، طبعاً، وتبعد مسافة نصف فترة الصباح سيراً على الأقدام.

يمكن لأيٍّ كان أن يخبرهم بذلك.

* * *

جنوب السودان / ١٩٨٥

لم يكن سالڤا قد رأى شيئاً يشبه الصحراء من قبل. فَقَرْيَتُه، لون-آريك، محاطة بالعشب، وتنمو الشجيرات كمرعىً للماشية. حتى إن هناك أشجاراً. ولكن هنا في الصحراء، لا شيء أخضر يمكن أن ينمو، سوى بضع شجيرات من الأكاسيا الدائمة الخضرة، التي تحمّلت أَشْهُر الشتاء الطويلة، وغالباً بلا ماء.

قال العم إننا سنستغرق ثلاثة أيام لنقطع آكوبو. كان حذاء سالڤا لا يَقيهِ حرّ أرض الصحراء القاسية. فقد كان باطن القدم، المصنوع من الكاوتشوك، قد أصبح مزقاً مربوطة بعضها ببعضٍ بجلدٍ خفيف، على أمل أن تكفيه. وبعد بضع دقائق فقط كان عليه أن يخلعه ويسير حافياً.

كان اليوم الأول في الصحراء كأطول يوم قد شَهِدَه سالڤا. فالشمس كانت دائمة، وحارقة. لم يكن هناك ولا حتى لُفافة غيم، أو نَفْحَةَ نسيم تلطّف الجو. وحتى التنفس أصبح صعباً: وكل شهيق يأخذه سالڤا كان يبدو أنه يستنزف قِواه بَدَلَ أن يستعيدها. فالأشواك عَلِقَت بقدميه، وشفتاه تشققتا، وتقشّرتا. ولفت انتباهه أن عمّه يحتفظ بالماء كي يدومَ أطول وقت ممكن. وهذا كان أقسى ما يمكن أن يقوم به سالڤا، أن يتناول رشفة فقط عندما يشعر بجسده بالحاجة لجرعاتٍ كبيرة من الماء يروي بها عطشه - أو يمنحه الحياة. وأسوأ لحظة في ذلك اليوم كانت عندما اقترب من النهاية، إذ تعثّر سالڤا بِحَجَرٍ، فأدى إلى نزع ظفر إصبعه العارية كلّها. كان الألم شديداً. وحاول سالڤا أن يعضّ شفتيه من شدة الألم، لكن صعوبة ذلك اليوم كانت تبدو بلا نهاية بالنسبة له. فطأطأ رأسه، والدموع تنهمر من عينيه. وبدأ في الحال يصرخ بشدة، حتى انقطع تنفسه تقريباً. وأصبح بصعوبةٍ يستطيع التفكير، أو يرى أمامه. وعليه أن يبطئ سيره. ولأول مرة في تلك الرحلة

الشاقّة، الطويلة، بدأ يتخلّف عن المجموعة. يتعثّر، شبه أعمى. لم يلحظ أن المجموعة قد تجاوزته بمسافاتٍ بعيدة.

وبشيء يشبه الخيال، كان عمّه فجأة بقربه، يخاطبه باسمه الكامل، بصوتٍ عالٍ وصافٍ:

«سالڤا معوان دوت آريك!» رفع سالڤا رأسه، وانقطع تنهّدُه بالمفاجأة.

وتابع العمّ مشيراً: «*ألا ترى مجموعة الشجيرات تلك؟ أنت بحاجة لأن تمشي إليها فقط. هل أنت قادر على ذلك؟ يا سالڤا معوان دوت آريك؟*»

جفّف سالڤا دموعه بقفا يديه. فاستطاع رؤية الشجيرات، التي كانت تبدو ليست بعيدة جداً.

مدّ العمّ يده إلى حقيبته، وتناول قطعة تمر هندي، وأعطاه إياها. وحالما بدأ يمضغ طعم عصيرها الحامض، شعر سالڤا بالتحسّن.

عندما وصلوا تلك الشُّجيرات، أشار العم إلى أَجَمَة صخورٍ في الأعلى، وطلب من سالڤا أن يمشي بمقدار مسافة تلك الصخور. يليها أكاسيا وحيدة... ثم أجمة صخور أخرى... ثم بقعة خالية تماماً من كل شيء، سوى الرمل.

تابع العم السير باقي الطريق. وبين حينٍ وآخر، يكلّم سالڤا، مستخدماً اسمه الكامل. وفي كل مرة، كان سالڤا يفكّر بأهله، وقريته، واستطاع، نوعاً ما، أن يحرّك قدمه المجروحة إلى الأمام، وهو يشعر بالألم في كل خطوة.

وأخيراً انحسرت الشمس عنوةً من السماء. وكانت مكرُمةً أن خيّم الظلام على الصحراء، فأعطى فرصة للاستراحة.

كان اليوم التالي مثل اليوم الذي سبقه تماماً: الشمس، والحرارة، والأسوأ بالنسبة لسالڤا، هو أن المشهد لم يتغير مطلقاً. الصخور نفسها، شجر الأكاسيا ذاته،

والغبار نفسه. لم يكن هناك أي مؤشّر، قطّ، أن المجموعة كانت تتقدّم عبر الصحراء. شعر سالڤا وكأنه قد مشى لساعاتٍ، بينما هو يراوح في المكان نفسه. أصدرت الحرارة الحارقة موجاتٍ متلألئة، مما جعل كل شيء يبدو متهادياً. أم هل كان هو الذي يبدو متهادياً؟ فأجمة الصخور الضخمة التي أمامه كانت تبدو وكأنها تتحرك... إنها تتحرك فعلاً... هي ليست صخور على الإطلاق. إنهم بشر.

اقتربت مجموعة سالڤا أكثر. عدّهم سالڤا؛ تسعةُ رجالٍ، كلهم اختفوا في الرمل. تحرك واحد منهم حركة صغيرة، يائسة، بيده. وحاول آخر أن يرفع رأسه، لكنه سقط ثانية. اختفى صوتهم جميعاً.

وبينما كان سالڤا يراقب الأمر، أدرك أن خمسة من الرجال كانوا بلا حَراكٍ تماماً. واحدة من النساء في مجموعة سالڤا اندفعت إلى الأمام، ووقعت. فتحت وعاء الماء الذي معها. ناداها أحد الرجال قائلاً: «*ماذا تفعلين؟ لن تتمكني من إنقاذهم!*»

لم تردّ المرأة. وعندما رفعت نظرها إلى الأعلى، رأى سالڤا الدموع في عينيها. هزّت رأسها، ثم سكبت القليل من الماء على قطعة قماش، وبدأت ترطب شفتي أحد الرجال الذين كانوا على الرمل.

نظر سالڤا إلى العيون المجوّفة، والشفاه المتشقِّقة للرجال المرميّين على الرمل، كما شعر هو بِفَمِهِ جافّاً أيضاً، حتى إنه صُعِق تقريباً عندما حاول أن يبلع.

ناداها الصوت نفسه قائلاً: «*إذا أعطيتِهم الماء، فلن يبقى لديكِ ما يكفي لكِ! لا فائدة - سوف يموتون، وستموتين أنتِ معهم!*»

* * *

الفصل العاشر

جنوب السودان / ٢٠٠٨

ختم الرجال اجتماعهم. وقفوا جميعاً، ثم مرّوا ببيت نايا. انضمّت نايا إلى مجموعة الأطفال الذين كانوا يَلْحَقون بهم.

على مسافة بضعِ دقائقَ سيراً، كانت هناك شجرةٌ خلف منزلها. توقّف الرجال عند الشجرة، واستفاض الغرباء بالحديث مع خال نايا. وكانت هناك شجرة أخرى، على بُعد نحو خمسين خطوة من الشجرة الأولى. توقّف أحد الرجال، كان خال نايا بجانبه، في منتصف المسافة بين الشجرتين. ومشى الرجل الآخر باقي المسافة، وتمعّن بالشجرة الثانية. نادى الرجل الأول رفيقه بلغةٍ لم تفهمها نايا. ردّ الصديق الأول باللغة نفسها، لكنه، وبينما كان يعود باتجاه المجموعة، ترجمها للمختار، واستطاعت نايا سماعَه.

سوف نجد المياه هنا، في هذه البُقعة بين الشجرتين. هزّت نايا رأسها! ***(عن ماذا يتحدثون؟)*** هي تعرف ذلك المكان كما تعرف ظاهر - وباطن يدها. فهناك، بين الشجرتين، كان يجتمع، أحياناً، أهل القرية حول موقد النار الكبير كي يُغنّوا، ويتسامروا. ليس هناك أية نقطة ماء في هذه البقعة، إلا حين تمطر.

* * *

جنوب السودان / ١٩٨٥

تناول سالڤا قرعته. كان يعرف أنها ممتلئة حتى نصفها، لكنها بدت فجأة أخفّ ثقلاً، حتى لكأنها فَرَغَت من الماء. كان العم جاوير قد توقع ما كان سالڤا يفكّر به، فهمس له:

«لا يا سالڤا، فأنت صغير جداً، وليس لديك القوة الكافية بعد. وبغير الماء لن تستطيع أن تحافظ على حياتك في السير للمسافة المتبقية بعضٍ من الآخرين يمكن أن يتدبروا الأمر أكثر منك».

بالتأكيد، كان هناك ثلاثُ نساءٍ يُقَدِّمْنَ الماءَ إلى الرجال على الأرض. وأشبه ما تكون بالمعجزة، فقد استعادوا الحياة بتلك القطرات من المياه، واستطاعوا أن ينتصبوا واقفين، لينضمّوا إلى المجموعة عندما تابعوا الطريق. لكن الخمسة الذين ماتوا، تُرِكوا هناك. فليس من أداة ليحفروا بها، إضافة إلى أن دفنهم سوف يستغرق وقتاً طويلاً.

حاول سالڤا ألا ينظر إلى أجسادهم، لكنّ نَظَرَهُ كان مثبتاً باتجاههم. عرف ما الذي سيحصل. سوف تجد النسور أجسادهم، وتمزقها عن لحمها المتفسخ، حتى تبقى العِظام فقط. فشعر بالغثيان لمجرّد التفكير بهؤلاء الرجال - أولاً موتُهم بتلك الطريقة المُرعِبَة، ثم تفسُّخُ جثثهم.

لو كان أكبر، وأقوى، لكان قدّم الماء لهؤلاء الرجال؟ أو كان احتفظ بالماء لنفسه، مثله مثل باقي أفراد المجموعة؟

كان ذلك هو اليوم الثالث للمجموعة في الصحراء. وسوف يتجاوزونها مع مغيب الشمس، وبعدها، لنْ تكونَ المسافةُ بعيدة للوصول إلى مخيم إيتانغ للاجئين في إثيوبيا.

وبينما كانوا يشقون طريقهم في الحرّ، وجد سالڤا أخيراً فرصة ليكلّم عمّه حول مسألة تُقْلِقُهُ، وتزداد إلحاحاً كالظل في ذهنه، فسأله: «*عمّي! عندما أكون في إثيوبيا، كيف يمكن لأهلي أن يجدونني؟ ومتى سأتمكّن من العودة إلى لون - آريك؟*»

فردّ العم: «*لقد تحدّثت مع الآخرين، هنا. نعتقد أن لون-آريك قد هوجمت... وربما حُرِقت. وعائلتُك...!*» توقّفَ العمّ، ونَظَرَ في البعيد. وعندما عاد بنظره كان وجهُهُ متجهماً.

«*بعض الناس نجوا من الهجوم في القرية يا سالڤا. وأيٌّ منهم لو كان حيّاً لَهَرَبَ في الأحراج، ولا أحد يعرف أين هم الآن*». صمت سالڤا للحظة، ثم قال: «*على الأقل أنت ستكون معي، هناك، في إثيوبيا*».

كان صوت العمّ لطيفاً: «*لا، يا سالڤا، بل عليّ أن ألتحق بالحرب في السودان، بعد أن أوصلك إلى مخيم اللاجئين في إثيوبيا*».

توقّف سالڤا، وتمسّك بذراع عمّه: «*لكنْ... لنْ يكون معي أحدٌ يا عمّي! من سيكون أهلي؟*»

أَفلَتَ العمّ قبضة سالڤا بلطف، لكي يمسك بيده، وقال: «*سيكون هناك كثيرٌ من الناس في المخيم. وسيكون لديك أصدقاء بين بعضٍ منهم- ستكوّن أشبه ما يكون بالعائلة هناك. هم، أيضاً يمكن أن يحتاجوا إلى أحدٍ ما لِيَعْتَمِدوا عليه*».

هزّ سالڤا برأسه، غير قادرٍ على تخيّل شكل الحياة في المخيّم بدون عمّه. وشدّ يد عمّه بقوّة. توقف العمّ ساكناً، ولم يُضِف شيئاً إلى ما قال.

(هو يعلم أن الحياة ستكون صعبة بالنسبة إلي). هذا ما أدركه سالڤا. *(فلم يشأ أن يتركني هناك، لأنه مضطر للعودة إلى القتال مع أهلنا. عليّ ألا أتصرف بشكل طفولي - عليّ أن أحاول أن أكون قوياً...)*

بَلَعَ سالڤا ريقَهُ بصعوبة، وقال: *«عمّي... عندما تعود إلى السودان، ربما تُصادِف أَهْلي هناك. أخبرهم أين أنا. أو قد تتحدّث إلى من تلتقيهم، وتسألهم عن الناس الذين كانوا في لون-آريك، أين هم الآن»*.

لم يردّ العم مباشرة. ثم استأنف قائلاً: *«طبعاً، هذا ما سأفعله يا بن أخي»*.

شعر سالڤا بشيءٍ من الأمل، بأن عمّه سوف يسأل عن عائلتِه. هناك احتمال أن يعودوا ليجتمعوا معاً، يوماً ما.

مضى يومان لم يأكل أيُّ فردٍ من المجموعة أيَّ طعام. والمياه لديهم توشك أن تَنْفُدَ. وكل ما كان يجعلهم يتحملون التحرّك في الحرّ والغبار، هو أنهم شارفوا على أن يقطعوا الصحراء.

وفي وقت مبكّر من بعد ظهيرة ذلك اليوم، صادفوا أوّلَ ما يُثبتُ أن الصّحراء تنحسر؛ وهو بعض الأشجار المقزّمة بالقرب من بِرْكة ماءٍ موحِلَة. لم تكن تلك المياه صالحة للشرب، لكن كان هناك طائرُ لَقْلَقٍ ملقىً على الأرض ميتاً. فبدأت التحضيرات، على الفور، لطبخه وأكله. ساعد سالڤا في جمع الأغصان كي يُضرموا النار. وعندما استوى الطير على النار، كان سالڤا لا يحيد بَصَرَهُ عنه إلا بصعوبة. فسوف يكون هناك قضّة، أو اثنتين،

لكل شخص، لكنه لم يستطع الانتظار إلا بصعوبة. ثم سمع أصواتاً عالية. فاستدار، هو وباقي رجال المجموعة، ورأوا ستة رجال يتقدمون نحوهم. وما إنِ اقتربوا منهم حتى رأى أنهم مسلّحون بالبنادق، والخناجر، وبدؤوا يصيحون بأصواتٍ عالية:

«اجلسوا!»

«أياديكم فوق رؤوسكم!»

«جميعكم! الآن!»

جلس كل واحد من المجموعة فوراً. كان سالڤا خائفاً من الأسلحة، ولاحظ أن الآخرين مثله، أيضاً.

سار أحد الرجال بين المجموعة، ثم توقف أمام عمّه. ثم *سأله: «هل أنت مع المتمرّدين؟»*

استطاع سالڤا، من خلال الوشم الواضح على وجه الرجل، أن يعرف أنه من قبيلة النُّوَيْر.

أجاب العم: *«لا!»*

«من أين أتيتم؟ وإلى أين وجهتكم؟»

قال العم: *«قَدِمْنا من غرب النّيل». ونحن ذاهبون إلى إيتانغ، مخيّم اللاجئين.*

فطلب الرجل من العم أن ينهض، ويترك بندقيته حيث هي. وأخذ رجلان آخران العمّ إلى الشجرة القريبة، على بعد عدة ياردات، وربطوه إليها. ثم تحرك الرجال بين المجموعة. فإذا وجدوا أياً منهم كان يحمل حقيبة،

فتحوها، وأخذوا أي شيءٍ موجودٍ فيها. وأمروا بعضهم أن ينزعوا ثيابهم عنهم وأخذوها أيضاً.

كان سالفا يرتجف. وحتى في عزّ خوفه، أدرك، لأول مرة في الرحلة، أنه من المستحسن أن تكون الأصغر: (*لن يستفيد الرجال من ملابسه*). وحالما انتهى الرجال من عملية السّلب، تناولوا بندقية العم، ثم مشوا باتجاه الشجرة التي كان العم مقيداً إليها. فكّر سالفا بينه وبين نفسه:

(*سوف يتركوننا بعد أن سلبوا كل ما لدينا*). فسمعهم يضحكون.

وبينما نظر سالفا نحوهم، رأى أحد الرجال يصوِّب بندقيته باتجاه عمّه. انطلقت ثلاث طلقات. ثم هرب الرجال.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الحادي عشر

جنوب السودان / ٢٠٠٨

بعد أن غادر الرجلان القرية، بدأت مهمة إزالة الشجيرات من الأرض الواقعة بين الشجرتين. كان عملاً شاقّاً: فالشجيرات الصغيرة كان من الضروري اقتلاعُها من جذورها، وحرقُها. والعشب الطويل يجب قصّه بالمنجل، وتجميعه بالمجرفة. كان عملاً خطيراً، أيضاً، حيث الأفاعي، والعقارب السامّة تختبئ في العشب.

كانت نايا ما تزال تقوم برحلتيها يومياً إلى بركة الماء. وفي كل مرة تشاهد حين عودتها، كل ذلك يسير ببطء، لكن، من المؤكد أن البقعة التي عولجت، تزداد توسعاً في كل مرة. كانت نايا تعلم أن الأرض في ذلك المكان جافة وصخرية، مما حيّرها: *(كيف سيكون الماء موجوداً فيها؟)*

وعندما سألت ديب هذا السؤال، هزّ رأسه. ولاحظت الشكَّ في عينيه، أيضاً.

الدار العربية للكتاب

جنوب السودان، وإثيوبيا / ١٩٨٥

دفنوا العمَّ في حفرةٍ بعمقِ قدَمَين، كان نوعٌ ما من الحيوانات قد حفرها. واحتراماً له، لم تمشِ المجموعة ذلك اليوم، بل أخذوا وقتهم من أجل المواساة في الرجل الذي كان قائدهم.

كان سالڤا مشلولَ التفكير، وعندما تأتيه الأفكار، كانت تبدو سخيفة. فقد انزعج لأنهم لن يتمكنوا من الأكل بعد كل ما جرى: فبينما كان الرجال ينهبون المجموعة، كان هناك الكثير من الطيور تحوم حول الطير المشوي، وتنقر لحمه حتى لم يبقَ منه غير العظام. كان وقت الحزن قصيراً، إذ عادوا للسير فور حلول الظلام. وبالرغم من الغمّ الذي في قلبه، دُهِش سالڤا لقدرته على السّير بشكل أسرع، وأكثر جرأةً مما كان عليه من قبل.

ميريال رَحَلَ. وعمُّه، أيضاً، قضى نحبه، وأمام عينيه، على يد أولئك الرجال من قبيلة النُّوَيْر. ولم يعد هناك لا ميريال، ولا عمُّه بجانبه، ولن يعودا أبداً. ولكنه يدرك أنهما، كليهما، كانا يريدان له أن يبقى حياً، وينهي الرحلة، بأن يصل سالماً إلى مخيم إيتانغ للّاجئين. وكأنهما، على ما يبدو، غالباً، قد تركا كامل قُوّتِهما معه، لتكون عوناً له في رحلته. لم يستطع أن يفكّر في أي تفسيرٍ آخر لما كان يشعر به. لكن، مما لا شك فيه: *(كان ثمّة شعورٌ بالقوّة يُغَلّف حُزنه الشديد).*

والآن، بعد أن أصبح سالڤا دون رعاية عمّه، وحمايته، تغيّر موقف المجموعة منه. عادوا ليتذمّروا منه لأنه فتىً صغير، ويمكن أن يبطئ مسيرهم، أو يعود للبكاء، كما حصل في الصحراء.

لم يشاركه أحد بشيء، لا طعاماً، ولا صحبةً. عمّه كان يشارك كل أفراد المجموعة بالحيوانات، والطيور التي يصطادها. لكن يبدو أنهم نسوا كل ذلك. لأن سالڤا كان يقتات على البقايا التي يطلبها، ويعطونه إياها على مضض. تلك الطريقة التي كانوا يعاملونه بها جعلته يشعر أكثر بالقوة؛ *(فما من أحد بَقِيَ لمساعدتي. يظنّون أنني ضعيف، وبلا فائدة)*.

رفع سالڤا رأسه بعنفوان. *(إنهم مخطئون. وسأثبت ذلك)*.

لم يسبقْ لسالڤا أن رأى هذا العدد الهائل من الناس في مكانٍ واحد. كيف يمكن أن يكون هذا العدد من الناس في العالم؟

أكثر من المئات. أكثر من الآلاف، بل آلاف فوق آلاف. الناس في صفوف، وتجمُّعات، وتكتُّلات. أناس يميلون على الجوار، وواقفون، وجالسون، وآخرون جاثمون على الأرض، أو مستلقون وأرجلهم متقاطعة فوق بعض، إذ لا مكان للتّمَدُّد.

كان مخيم إيتانغ للّاجئين قد امتلأ بالبشر من كل الأعمار - رجالٌ ونساءٌ، وفتياتٌ، وأطفالٌ... ولكنّ غالبيّة اللاجئين كانوا من الأولاد والشباب الذين هربوا من قُراهم عندما اندلعت الحرب. هربوا لأنهم كانوا تحت خطرٍ مضاعف. من الحرب نفسها، ومن الجيوش في كلا الطرفين. لأن الشباب، وحتى الأولاد كانوا يُرغَمون على الانضمام للقتال، الذي كان سببه قيام أهلهم، ومجتمعاتهم - ومنهم مدير مدرسة سالڤا - بتهريب أولادهم إلى الأحراج عند نشوب القتال.

تمَّ جَمْعُ الأطفال الذين أتوا دون عائلاتهم في مجموعة، لذا تم التعامل مع سالڤا، فوراً، على أساس المجموعة التي قَدِمَ معها. مع أنهم لم يكونوا قد

تعاملوا معه بلُطف، لكن، على الأقل هم يعرفونه. والآن، مرة أخرى بين الغرباء شعر بالقَلَقِ، والخوف.

كان سالڤا يسترق النظر لكل وجهٍ يمرُّ به، بينما يتمشّى في المخيم كالآخرين. فالعمّ قال مؤكّداً أن لا أحد يَعْلَم أين عائلته.... لذا؛ (*أليس من بريق أملٍ... لربما يكونون هنا؟*)

كان سالڤا يجول بِنَظَرِهِ بين الحشود المنتشرة إلى أبعد مكان يمكنه رؤيته. شعر بقلبه يخفق قليلاً، لكنه أحكم قبضة يديه، وَوَعَد نفسه: (*إن كانوا هنا، فسوف أجِدُهُم*).

* * *

بعد بضعة أسابيع من السَّير، وجد سالڤا أن المكوث في المكان نفسه أمرٌ غريبٌ. فخلال تلك الرحلة الطويلة المُضْنِيَة، أن تجد مكاناً آمنا للتوقف، والمكوث قليلاً، وفي حالةٍ من فِقْدان الأمل، كان أمراً مهماً. ولكنّه الآن يشعر بالقلق لأنه في المخيّم - وكأنه يوشك أن يعود للسير مرة أخرى.

كان المخيم بمأمنٍ من الحرب. فليس هناك من مسلّحين ببنادق، أو خناجر، ولا طائراتٍ بقنابلَ تعلوهم. وفي تمام مساء اليوم الأول لسالڤا في المخيم، قُدّمَت له زبدية من الذرة المغلية ليأكلها، وأخرى في صباح اليوم التالي. بالطبع كانت الأمور أفضل مما كانت عليه أثناء الرحلة.

وخلال بعد ظهر اليوم الثاني، شق سالڤا طريقه ببطءٍ بين الحشود. ووجد نفسه مصادفةً أمام بوابة المخيّم، وهي البوابة الرئيسة، وبدأ يراقب دخول القادمين الجدد. وكما يبدو، المخيم لا يتسع للمزيد، ولكنهم تابعوا

الدخول: أرتالٌ طويلة من البشر، بعضُهم هزيلٌ، وآخرون مصابون، أو مرضى، أو مرهقون. وبينما كان سالفا يتفحّص الوجوه، لَفَتَهُ بريقٌ برتقالي.

(برتقالي.... غطاء رأس برتقالي...!)

وبدأ يدفع الناس، ويتعثّر بهم. بعضهم خاطبه بغضب، لكنه لم يتوقف ليعتذر بنفسه. ما يزال يرى البُقعة البرتقالية الحيّة - نعم، هو غطاء رأسٍ - كانت المرأة تدير ظهرها، لكنها طويلة، كأمِّه - قرّر أن يلحقَ بها - أناس كُثُر في طريقه - شِبْهُ نشيجٍ فَلَتَ من شَفَتَيّ سالفا. يجب ألا يضيّع إثرها!

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل الثاني عشر

جنوب السودان / ٢٠٠٩

الزرافة الحديدية. أي الزَّرافة الحمراء التي تصدر أصواتاً عالية جداً.

تلك الزَّرافة، التي كانت عبارة عن حفارة طويلة، كان الرجلان اللّذان سبق أن زارا القرية من قبل، قد أحضراها إلى القرية. فقد عادا مع فريقِ عملٍ من عشرةِ رجالٍ آخرين، وشاحِنَتَيْن - إحداهما تَجُرّ الحفارة - الزرافة، إضافة إلى معداتٍ أخرى غريبة، والأخرى محمّلة بالأنابيب البلاستيكية. بينما كان العمل بمعالجة الأرض ما يزال قائماً.

علّقت والدةُ نايا الطفلَ إلى ظهرها ومشت، مع عدة نسوة أخريات، إلى مكان بين القرية والبركة. وجَمَعْنَ أكواماً من الحصى والحجارة، ورَبَطْنَها بأحزمة من القماش المتين، ووَضَعْنَها بشكل متوازن على رؤوسهنّ، ثم مَشَيْنَ عائداتٍ إلى موقع الحفر، وأفْرَغْنَ فيه الحجارة، على الأرض. بينما قام أبناءُ القرية الآخرون بتكسير الحجارة، باستخدام أدواتٍ أعطاهم إياها الزوار، وفتّتوها إلى حصى. كانت هناك حاجة إلى أكوام كثيرة من الحصى. لم تكن نايا تعرف السبب. وفي كل يوم، كانت أكوام الحصى تتزايد أكثر.

كان صخب الآلات، والمطارق تُحَيّي نايا عند عودتها كل يوم من البِرْكَةِ - ضجيج غير مألوف، امتزج مع أصوات الرجال يصرخون، والنسوة يغنّين.

لكن، يبدو أنه ليس الماء، أبداً!

* * *

مخيم إيتانغ للاجئين / ١٩٨٥

«أمي! أمي! أرجوكِ!»

فتح سالڤا فمه لينادي مرة أخرى. لكنَّ الكلامَ وقف في حَلْقِهِ. وَعِوَضاً عن ذلك، أغلق فَمَهُ، وطأطأ رأسَهُ، وابْتَعَدَ.

لم تكن المرأة ذاتُ الشّالِ البُرْتُقالي أمَّه. كان مدركاً، ومتأكداً من ذلك، مع أنها كانت ما تزال بعيدة، ولم يرَ وجهها.

عادت إليه كلماتُ عَمّه: *«لقد تمّت مهاجمة قرية لون-آريك... أُحرِقَت. قِلّة من الناس نَجَوا... لا أحد يعلم أين هم الآن».*

وفي اللحظة التي كان سالڤا يريد أن ينادي المرأة مرةً أخرى، أدرك ما الذي كان عمُّه يعنيه، فعلاً، شيء يدركه سالڤا ضمناً منذ وقت طويل: عائلتُه انتهت. قُتِلوا بالرّصاص، أو القنابل، بالجوع أو المرض - ليس المهم كيف!!. بل الأهمّ أن سالڤا وحيدٌ الآن.

شعر وكأنه يقف على حافة الهاوية - حفرة ملأى بالأسى، والعَدَم.

(أنا وحيد الآن! أنا الوحيد الذي بَقِيَ من عائلتي!)

أبوه، الذي أرسله إلى المدرسة... وأحضر له المغريات... مثل المانغو... وَوَثِق به ليعتني بالقطيع... والدته، التي كانت دائماً حاضرة بالطعام، والحليب، وراحَتُها الطريّة تتلمّس رأس سالڤا. إِخوتُه، أَخواتُه، الذين كان يمرَح ويلعب معهم... ويعتنون به... لن يراهم بعد اليوم.

(كيف لي أن أستمرّ دونهم؟

بل كيف لي ألا أستمر؟ كانوا يريدون لي النجاة... أن أكبر، وأفعل شيئاً في حياتي... لأُحيي طيب ذكراهم).

ما الذي قصده عمّه في ذلك اليوم، في الصحراء؟ عندما قال:

«هل ترى أَجَمَة الشجيرات، تلك؟ عليك أن تسير فقط بمقدار مسافتها...» بتلك الطريقة كان عمّه قد ساعده على أن يجتاز الصحراء، رويداً، رويداً، خطوة، خطوة. ربما... ربما تمكّن سالفا من أن يتحمّل الحياة في المخيّم بالطريقة نفسها.

قال في نفسه: *«ما أريده فقط، أن أكمل ما تبقّى من هذا اليوم. اليوم، وليس يوماً آخر»*

ولم يكن سالفا ليصدّق، لو أن أحداً كان قد أخبره أنه سوف يقيم في هذا المخيّم لمدة ست سنوات.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

بعد ست سنوات:

تموز ١٩٩١

سوف يغلقون المخيم. وعلى الجميع مغادرته.

«هذا مستحيل. إلى أين سنذهب؟»

«هذا ما يقولونه. ليس فقط هذا المخيّم، بل كل المخيّمات».

تناثرت الشائعات في كل أنحاء المخيم. كان الجميع قَلِقين. وبمرور الأيام، انقلب القلقُ إلى خوفٍ.

كان سالفا، حينئذٍ، قد أصبح شابّاً، في السابعةَ عشرةَ من عُمرِه. حاول أن يعرف شيئاً عن الشائعات، وذلك بالتحدّث إلى عمال الإغاثة في المخيّم. فأخبروه أن الحكومة الإثيوبية توشك أن تسقط. ومخيمات اللاجئين كانت تُسيَّر أمورُها من خلال مساعدات خارجية، لكن الحكومة هي التي سمحت لهم بتسييرها. وإذا سقطت الحكومة، فماذا سيفعل الحكام الجدد بالمخيمات؟

وعندما وجدوا جواباً لتساؤلهم، لم يكن أي منهم مستعداً. ففي أحد الأيام الماطرة، بينما كان سالفا يمشي إلى المدرسة، وصلت أرتال من الشاحنات. جيوشٌ من الجنود المسلحين اندفعوا من الشاحنات، وأمروا الجميع بالمغادرة. الأوامر لم تكن لمغادرة المخيّم، بل لمغادرة إثيوبيا.

عَلا الشّغب فوراً، وكأن الناس لم يعودوا بشراً، بل قِطعاناً هائلة من المخلوقات المذعورة، تفرّ مذعورةً على قدمين.

كان سالڤا ضمن ذلك التيار من البشر، فلامست قدماهُ العاريَتانِ الأرضَ، بينما سَحَبَهُ الحَشْدُ من آلاف الناس الّذين يهرولون ويصرخون. إضافة إلى المطر الذي كان يتساقط كالسّيل، ممّا زاد المشهد ذعراً.

لقّم الجنود بنادقهم، وأطلقوها في الهواء، وهم يلاحقون الناس لإبعادهم عن المخيّم. وحالما أصبحوا خارج المنطقة المحيطة بالمخيّم، تابع الجنود سَوْقَهم إلى الأمام، وهم يصرخون بهم، ويطلقون الرصاص.

وبينما كان سالڤا يتقدم، سَمِعَ بعضَ كلام.

(النّهر).

(إنهم يطاردوننا باتجاه النهر!)

أدرك سالڤا أيَّ نهرٍ كانوا يقصدون: نهر الجيلو، الذي كان على الحدود بين إثيوبيا والسودان.

إنهم يقودوننا لنعود إلى السودان. هكذا فكّر سالڤا. سوف يرغموننا على عبور النهر... كان فصل المطر حينذاك. وتيار المياه في نهر الجيلو أثناء المطر لا يرحم. نهر الجيلو كان يشتهر بشيءٍ آخرَ أيضاً... التماسيح.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثالث عشر

جنوب السودان / ٢٠٠٩

كانت نايا تعتقد أنَّ الأمرَ مضحكٌ. يجب أن يكون هناك مياه لكي تبحث عنها. المياه يجب أن تكون دائمة التدفق في الحُفَر، لكي تدخل الحفارة بسهولة.

كان فريق العمل يذهبون بسياراتهم إلى البِركة عدة مرات يومياً، ثم يعودون. يملؤون مياه البركة في أنابيبَ موصولة مع أكياس بلاستيكية - كبيرة بما يكفي لتملأ أرضيّة الشاحنةِ بالكامل.

كان في الكيس تسريب، والتسريب يجب ترقيعه. تسريب في الرقعة أيضاً. قام العمال بترميم الرقعة. عادت الرقعة الجديدة للتسريب أيضاً. لن تتمكّن الحفّارة من متابعة الحفر. كان فريق العمل قد أُحْبِط بسبب هذه التسريبات. كانوا يريدون توقيفَ العملِ، لكنّ مديرهم أصرّ على المتابعة. كانوا جميعاً يرتدون لباساً موحّداً أزرق اللون، (أوفرول)؛ ومع ذلك ما زالت نايا تستطيع تمييز المدير. فهو واحدٌ من الرَّجُلَين اللّذَين أتيا منذ البداية إلى القرية. أما الرجل الآخر، فكان، على ما يبدو مساعدَه الأساسي.

كان المدير يشجّع العمال، ويضحك، ويروي النّكات معهم. وإن لم يكن هناك ضرورة لذلك، سوف يكلمهم بجدّيّة، ويحاول أن يحثّهم على العمل.

وإن فشل، فسوف يغضب، وهو الذي قلّما يصل إلى حالة الغضب. إنه يتابع العمل - ويحثّ الآخرين على العمل أيضاً.

عادوا، ورمَّموا الأكياس. فاستمرّ الحَفْر.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

إثيوبيا - السودان - كينيا

١٩٩١-١٩٩٢

اصطفَّ المئات من الناس على ضفَّة النهر. وأَجْبَرَ الجنودُ بعضاً منهم للنّزول في النهر، وهم يركلونهم بكعب بنادقهم، ويطلقونَ الرّصاصَ في الهواء. هناك آخرون، كانوا يقفزون من ذاتهم في الماء، خوفاً من الجنود، فسحبهم التيار القوي فوراً نحو المجرى. وبينما كان سالڤا جاثماً على الضفة، متمعّناً، قفز شاب كان بجانبه، إلى الماء. سحبه التيار بسرعة نحو المجرى، لكنه كان يحرز تقدماً قليلاً عبر النهر.

ثم شاهد زعنفة ذيل التمساح، بينما كان يتخبط في الماء قرب الشاب. وبعد لحظات، كان رأس الرجل يتمايل بشكل لافتٍ - مرة، أو مرتين. وفمه كان مفتوحاً. ربما كان يصرخ، لكن سالڤا لم يتمكن من سماعه، إضافة إلى جَلَبَةِ الناس، والمطر... وبعد لحظات كان الرجل قد سُحِبَ إلى الأسفل.

غيمة من الدماء صبغت المياه.

كان المطر ما يزال منهمراً - وبعد ذلك صار يتساقط على شكل حبيبات. وبدأ الجنود يطلقون النار في النهر، مصوّبين بنادقهم نحو الناس الذين كانوا يحاولون أن يعبروا.

(لماذا؟ لماذا يُطْلِقونَ الرّصاصَ عَلَيْنا؟)

لم يكن أمام سالڤا أيُّ خَيارٍ آخر. فَقَفَزَ في الماء، وبدأ السباحة. وكان هناك ولد بقربه يتمسّك بعنقه، ويتعلق به بقوة. مما أجبره على النزول تحت سطح الماء، دون أن يجد وقتاً كافياً ليأخذ نَفَساً طفيفاً، سريعاً.

قاومَ سالڤا - رَفَسَ، أنْشبَ أظافرَهُ بي. إنه متشبث بي بصعوبة... لا أستطيع... هواء... لم يبقَ هواء...!

وفجأة، فكّت قبضة الولد عن رقبته، فدفع سالڤا بجسمه إلى الأعلى. وألقى برأسه إلى الخلف، وأخذ جرعةَ هواءٍ كبيرة. بقي لِلَحَظاتٍ لم يستطع أن يفعل شيئاً سوى اللّهاث، والاختناق.

وعندما اتضحت الرؤية أمامه، رأى سبب انفلات الولد منه: كان يطفو ورأسه للأسفل، والدماء تجري من مكان رصاصة في رقبته الخلفية. وأدرك سالڤا، مذهولاً، أن إرغامه على النزول في الماء، ربما، قد أنقذ حياته. ولكن لا وقت للعَجَبِ من ذلك. فقد كانت هناك تماسيحُ كثيرة تنطلق من الضفاف. كما كان عليه أن يتجاوز قدر الإمكان، المطر، وتيارات المياه الهائجة، والرصاص، والتماسيح، وتشابك الأرجل والأذرع، والصراخ، والدماء...

لم يكن سالڤا يقدّر كم من الوقت بقي في المياه.

كانت تبدو ساعاتٍ... بل أعواماً...

وعندما لامست أطراف أصابع قدميه الطين، أخيراً، أرغَمَ أعضاءه على حركات السباحة، للمرة الأخيرة. زحف إلى ضفة النهر، وسقط أرضاً. ثم استلقى في الطين لاهثاً، يشهق مقطوعَ النّفَسِ.

أدرك، مؤخراً أن هناك آلاف الناس قد ماتوا وهم يعبرون النهر في ذلك اليوم، غرقاً، أو بالرصاص، أو هاجمتهم التماسيح.

(كيف حدث ولم يكن هو واحداً من أولئك الآلاف؟ لماذا كان واحداً من بين المحظوظين؟)

عادوا للسّير مرةً أخرى. السّير - لكن إلى أين؟

بالتأكيد، لا أحد يعرف أي شيء. إلى أين يفترض أن يذهب سالڤا؟

(إلى موطنه!)... (الحرب ما زالت قائمة في السودان).

(ولا العودة إلى إثيوبيا!)... (فالجنود سيطلقون عليهم الرصاص).

(إلى كينيا... ربما كان هناك مخيمات للاجئين في كينيا).

قرر سالڤا بينه وبين نفسه أن يتجه جنوباً؛ إلى كينيا. لم يكن يعلم ماذا سيفعل، بعد أن يصل إلى هناك، لكن يبدو أنه الخيار الأفضل له.

تَبِعَتْهُ مجموعة من الأولاد الآخرين. لم يتحدثوا في الأمر، لكن مع نهاية اليوم، كان سالڤا قد أصبح رئيساً للمجموعة المؤلفة من نحو ألف وخَمْسُمِئة ولد. بعضهم كان صغيراً جداً، بعُمْرِ الخمسِ سنوات.

كان هؤلاء الأطفال الصغار يذكّرونه بأخيه كول. ثم خطرت بباله فكرة مدهشة. لم يعد كول في مثل ذلك السنّ - بل في سنّ المراهقة الآن! وجد سالڤا أنه يمكن أن يفكر فقط في إخوته، وأخواته كما كانوا عندما تركهم، وليس كما هم عليه الآن.

كانوا يسيرون في الجزء الذي ما يزال يعاني من الحرب في السودان. كان القتال، والقصف على أَشُدِّه أثناء النهار، لذا قرر سالڤا بأن تختبئ المجموعة عندما تشرق الشمس، ويكون السير ليلاً.

ولكن، في الظلام، كان من الصعب التأكد من أنهم يسيرون في الاتجاه الصحيح. أحياناً، كان الأولاد يسيرون لأيام حتى يدركوا أنهم قد ساروا في حلقة ضخمة. وهذا ما حدث أكثر من مرة، أي إن سالڤا قد فقد رُشْدَه. التقوا مجموعةً أخرى من الأولاد، كلهم يسيرون جنوباً. ولكلّ مجموعةٍ قصصٌ خطيرة مرعبة: أولادٌ تعرضوا للأذى، أو للقتل بالرصاص، أو بالقصف، أو هاجمتهم الحيوانات البرية، أو تخلّفوا عن المجموعة لأنهم يعانون الضعف، أو المرض الذي أعاقهم عن اللّحاق بهم.

وعندما سمع سالڤا تلك القصص، فكر بميريال، مما زاد من عزيمته، كما جرى له بعد موت عمه.

(سوف أصل بالمجموعة إلى كينيا بسلام، لا يهم مدى صعوبة ذلك).

نظّم المجموعة، ووزّعَ المهامّ لكل واحد بينهم: البحث عن الطعام؛ جمع الحطب للنار؛ حراسة أثناء نوم الآخرين. أي ماء، أو طعام يجدونه، يتم توزيعه بالتساوي بينهم. وعندما يتعب الأطفال الصغار من السير، يتناوب الصِّبية الأكبر سناً على حملهم فوق ظهورهم.

كانت هناك ثمّة حالاتٍ رَفَضَ فيها بعض الأولاد المشاركة بالعمل. فكان سالڤا يكلّمهم، ويشجّعهم، يقنعهم، ويحثّهم على العمل. وفي مرات قليلة كان يضطر لأن يتكلّم بجدّية، أن يصرخ؛ لكنه كان يحاول أن يتجنّب ذلك.

وكأن عائلة سالڤا كانت تساعده، مع أنهم لم يكونوا موجودين معه. تذكَّر كيف كان يعتني بأخيه الصغير، كول. لكنه كان يعلم، أيضاً، كيف كان يشعر عندما يصغي لأوامر الأكبر منه، آريك، ورينغ. ثم يتذكّر أختيه

اللطيفتين؛ قوة أبيه، عِنايَة أمّه. وأكثر ما كان يتذكره، هو كيف كان عمّه يشجعه في الصحراء.

(خطوة واحدة في كل مرة... يومٌ واحدٌ في كل مرة. اليوم فقط - هذا اليوم فقط، ونصل...)

كان سالڤا يكرّر ذلك لنفسه كل يوم، وكذلك كان يقول للأولاد، أيضاً. ويوم واحد، في كل مرة، شقّت المجموعة طريقها إلى كينيا. ووصل أكثر من ألف ومائتي ولد بسلام.

واستغرق الأمر عاماً ونصف العام.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل الرابع عشر

جنوب السودان / ٢٠٠٩

كان صوت الحفّارةِ يملأ الجوّ حول منزل نايا، ولمدة ثلاثة أيام. وبعد ظهر اليوم الثالث، انضمّت نايا إلى الأطفال الآخرين الذين تجمعوا حول موقع الحفر. وكان البالغون منهم قد فرِغوا من عملهم، في تجميع الأحجار، وجرفها إلى هناك، أيضاً.

يبدو أن العمال كانوا مسرورين. كانوا يتحركون بسرعة عندما أمرهم رئيسهم. ثم -

بووووووووش!!

اندفع رذاذ الماء إلى الأعلى في الهواء. لم تكن تلك هي المياه التي كان العمال يملؤونها في البئر. هذه مياه جديدة - مياهٌ كانت تخرج من البئر!

كان الجميع مبتهجين لرؤية الماء. كلهم ضحكوا عندما شاهدوا العاملَين اللّذَين يشغّلان الحفارة، وهما يتبللان بالماء، حتى غرقت ثيابهما تماماً.

وبدأت إحدى النسوة من بين الناس، بالغناء احتفالاً. أما نايا فكانت تصفّق مع باقي الأطفال. ولكنّها، كانت قد تجهمت حال رؤيتها الماء تندفع بقوة من البئر.

لم تكن المياه صافية. بل بُنّيّة اللون، طينيّة وذات قِوامٍ سَميك.

* * *

مخيم إيفو للاجئين - كينيا
١٩٩٢ - ١٩٩٦

أصبح سالڤا الآن في الثاني والعشرين من عمره. كان يعيش في مخيّم اللّاجئين، في شمال كينيا، خلال السنوات الخمس الماضية: بداية في مخيّم كاكوما، ثم مخيم *إيفو*.

كان مخيم كاكوما مكاناً بائساً، معزولاً، في وسط الصحراء الجافّة، التي تذروها الرياح. كان المخيّم محاطاً بالأسلاك الشائكة العالية؛ لم تكن مغادرته مسموحة، إلا إذا كنت ستغادر نهائيّاً. كان أشبه ما يكون بالسجن. عاش سبعون ألف لاجئ في مخيم كاكوما. ويقول البعض إنهم كانوا ثمانين، بل تسعين ألف. هناك عائلات تدبّروا أمرهم وهربوا معاً، ولكن، أيضاً كما حدث في إثيوبيا، معظم اللاجئين كانوا من الأولاد الأيتام، والشباب الصغار.

كان السكان المحليّون، القريبون من المخيّم، غير راضين عن إقامته بالجوار. كانوا يتسلّلون، ويسرقون الأشياء العائدة للّاجئين. وأحياناً ينشب قتالٌ بينهم، وكان السكان يُصابون، أو يُقتَلون.

بعد عامين من البؤس في كاكوما، قرر سالڤا أن يترك المخيم. فقد سمع بمخيم آخر للّاجئين، بعيداً باتجاه الجنوب - الغربي، على أمل أن تكون الأمور أفضل.

عاد سالڤا وبضعة شباب معه، للسير ثانية، ولمدة شهور. لكنهم عندما وصلوا مخيم إيفو، وجدوا الأمور لا تختلف عنها في كاكوما. الجميع كانوا دائماً

جياعاً، ولم يكن الطعام متوفراً بشكل كافٍ. فقد تعرّض كثيرٌ منهم للمرض، أو الأذيّة، أثناء رحلتهم الطويلة البائسة حتى وصلوا المخيم؛ فالمتطوعون للإسعافات الطبية لم يتمكنوا من تقديم الرعاية لكل من يحتاج للمساعدة. أما سالڤا فقد شعر بأنه محظوظ لأنه يتمتع بصحة جيدة.

كان يريد، يائساً، أن يعمل - ليجمع بعض المال كي يشتري به طعاماً أكثر. حتى إنه كان يحلم بأن يدّخر بعض المال، لكي يتمكن يوماً ما أن يغادر المخيّم، وربما يكمل تعليمه.

لكن، لـم يكن هناك عمل. لـم يكن هناك أي شيء يقوم به سوى الانتظار - انتظار الوجبة التالية، أو أخبار العالم خارج المخيم. كانت الأيام طويلة، وخالية. امتدت لأسابيعَ، ثم أشهرٍ، ثم سنوات.

من الصعب أن تُبقي الأمل حياً، بينما هناك القليل من الغذاء.

ميشيل هو عامل إغاثة من بلدٍ يُدعى إيرلندا. كان سالڤا قد التقى كثيراً من عمال الإغاثة. يأتون ويذهبون، يمكثون في المخيم لعدة أسابيع، أو لعدة أشهر على الأكثر. وعمال الإغاثة قد قَدِموا من دول مختلفة، لكنهم غالباً يتحدثون فيما بينهم بالإنكليزية. قِلّة من اللاجئين كانوا يستطيعون التحدث بالإنكليزية، لذا كان التواصل مع عمال الإغاثة صعباً.

لكن، بعد عدة سنوات في المخيم، تمكّن سالڤا أن يفهم الإنكليزية قليلاً. حتى إنه كان يحاول أن يتحدث بها في بعض الأحيان، وكان ميشيل، في الغالب، يفهم ما كان يحاول سالڤا أن يقول.

وفي أحد الأيام، وبعد وجبة الإفطار، تحدّث ميشيل مع سالڤا قائلاً:

«تبدو مهتّماً بتعلّم اللغة الإنكليزية. هل ترغب أن تتعلم قراءتها؟»

وفي اليوم نفسه بدأت الدروس. إذ كتب ميشيل ثلاثة أحرف على قطعة ورق صغيرة.

ولَفَظَها: "A, B, C," ثم أعطى الورقة لسالڤا.

فكرّرها سالڤا: "A, B, C,". وأمضى بقية اليوم وهو يردّد لنفسه غالباً "A, B,C,"، وأحياناً بصوتٍ مرتفع، وبهدوء. كان يتمعّن في الورقة أكثر من مِئة مرة، كما تمرّن على رسم شكل الحروف بالتراب والعصا، مراتٍ ومرات.

تذكّر سالڤا أنه كان قد تعلم القراءة بالعربية عندما كان صغيراً. وعدد الأحرف في اللغة العربية ثمانية وعشرون حرفاً؛ أما في اللغة الإنكليزية فعدد أحرفها ستة وعشرون فقط. في اللغة الإنكليزية تبقى الحروف منفصلة بعضها عن بعضٍ، لذا من السهل تَذَكُّرُها كل على حِدَه. في كلمات اللغة العربية، دائماً تتصل الحروف، ويتغير شكل الحرف، ربما، حسبما يأتي قبله، أو بعده.

وفي اليوم الذي تعلم فيه سالڤا كيف يكتب اسمه، قال له ميشيل:

«إنك تُبلي بلاءً حسناً، بالتأكيد، أنت تتعلم بسرعة لأنك تعمل بجدّ».

لم يُفصِح سالڤا عمّا كان يفكّر به: *(بأنه يعمل جاهداً لكي يتمكن من تعلُّم اللغة الإنكليزية قبل أن يغادر ميشيل المخيّم)*. لم يكن سالڤا يعلم فيما إذا كان أيّ من عمال الإغاثة الآخرين سيجد وقتاً لتعليمه.

«ولكن، جميلٌ أن تأخذ استراحة من العمل، من حين لآخر. فلنفعل شيئاً مختلفاً ولو قليلاً، مجرد تغيير. وأنا أظن أنك ستتقن ذلك-لأنك فتىً طويل القامة».

وهكذا تعلّم سالڤا شيئين من ميشيل: القراءةَ، ولَعِب الكرة الطائرة.

انتشرت شائعاتٌ في المخيّم. بدأت همساً، لكن سالفا شعر فوراً بها، وكأنها صَخَبٌ في أذنيه. لم يستطع أن يفكّر في أي شيء آخر. ***(أمريكا...!)***

(الولايات المتحدة الأمريكية).

كانت الشائعة تقول إنه سيتم اختيار ثلاثة آلاف ولد وشاب للذهاب والعيش في أمريكا.

لم يكن سالفا يصدّق ذلك. *(كيف يمكن أن تكون حقيقة؟ أين سيعيشون؟ بالتأكيد سيكون ذلك مستحيلاً...)*

لكن مع مرور الأيام، أكّد عمّال الإغاثة تلك الشائعة.

وكان كل ما يمكن لأي شخص أن يتحدث به هو:

«يريدون الأصحّاء فقط. فلن يتم اختيارك إذا كنت مريضاً».

«لن يأخذوك إذا كنت جندياً سابقاً مع المتمردين».

«سيتم اختيار الأيتام فقط. إذا كان لديك أي شخص بقي من عائلتك، عليك البقاء هنا».

ومرت أسابيع، ثم شهور. وفي أحد الأيام كان هناك إعلان معلّق في خيمة إعلانات المخيّم، عبارة عن قائمة أسماء. إذا ورد اسمك في القائمة، فأنت مرشّح للخطوة التالية: وهي المقابلة. وبعد المقابلة قد تذهب إلى أمريكا.

لم يكن اسم سالفا مُدرَجاً في القائمة، وليس في القائمة التي تَلَتْها.

كثيرٌ من الأولاد الذين تم اختيارهم كانوا أصغر من سالفا. ففكر بينه وبين نفسه: ***(ربما لم يكونوا يريدون أحداً من الكبار)***.

وفي كل مرة يتم تعليق قائمة، يهبط قلب سالڤا عند قراءة الأسماء. حاول ألا يفقد الأمل، وفي الوقت نفسه، ألا يتأمل كثيراً.

كان يشعر أحياناً بأنه مشطور بين الأمرين، أن يأمل... وألا يأمل.

وفي أحد الأيام العاصِفة، بعد الظّهر، أتى ميشيل مسرعاً إلى خيمة سالڤا.

«سالڤا! تعال بسرعة! لقد أُدْرِجَ اسمك اليوم!»

وانطلق سالڤا زاحفاً بقدميه، وهرول حتى قبل أن ينهي صديقَهُ كلامَه. وعندما وصل قريباً من لوحة الإعلانات، تباطأ واستعاد أَنْفاسَه.

(ربما كان مخطئاً. ربما كان شخصاً آخر اسمه سالڤا. لن أنظر فوراً... ربما أرى عن بُعْد الأسماء التي تماثل اسمي، فأنا أحتاج للتأكّد...)

شقّ سالڤا طريقه بكتفيه بين الحشد، حتى وصل أمام القائمة. رفع رأسه ببطءٍ، وشرع يقرأ الأسماء.

هو ذا. ***(سالڤا دوت - روتشستر، نيويورك.)*** سوف يذهب إلى أمريكا.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الخامس عشر

جنوب السودان / ٢٠٠٩

حتى لو أن المياه التي كانت تندفع من الحفرة بنّيّة، وموحلة، كان بعض الأولاد الصغار يريدون أن يشربوا منها مباشرة. لكن أمهاتِهم مَنَعْنَهم. أما الرجال، فقد تابعوا العمل. وتحدّث رئيسهم إلى عم نايا وأبيها، وبعض رجال القرية الآخرين.

وفيما بعد، أوضح لها ديب الأمر، قائلاً: «*لا تقلقي يا نايا. المياه تبدو موحلة لأنها ما تزال مختلطة مع المياه السابقة، التي استخدموها من البركة. عليهم أن يحفروا أعمق، للتأكد من أنهم وصلوا إلى المياه الجوفية، العميقة، الصافية. ثم عليهم أن يضعوا الأنابيب، ويُنْشِئوا نافورةً بالمجرفة، ومن ثَمَّ يركّبون المضخة، ويصبّون حولها الإسمنت، ويُترك حتى يجف*». وأردف ديب قائلاً: «*ذلك سوف يستغرق أياماً عدة حتى تصبح المياه جاهزة للشرب*». تنهّدت نايا، وتناولت الوعاء البلاستيكي. ما زالت هناك حاجة لمسيرٍ آخر إلى البركة.

نيروبي، كينيا - روتشستر، نيو يورك / ١٩٩٢

المشرّدون....

هكذا كانوا يُسَمّونهم في أمريكا - الأولاد الذين فقدوا أوطانهم، وعائلاتهم بسبب الحرب، ومشوا، وتشرّدوا، لأسابيعَ، وشهورٍ في وقتٍ ما، قبل أن يصِلوا إلى مخيّمات اللاجئين.

شرح ذلك عمال الإغاثة لسالڤا، وللأولاد الثمانية الذين سيسافرون معاً. كانت المرأة تتحدث الإنكليزية عموماً، مع بضع كلماتٍ بالعربية. لكنها لم تكن تجيد التحدث بتلك اللغة. وتحاول جهدها أن تتحدث ببطء، لكنها مضطرة أن تخبرهم بأشياءَ كثيرة، وكان سالڤا قلقاً من أن يبقى هناك أيّ شيء مهم قد لا يفهمه.

ركبوا عربة من مخيم إيفو للاجئين، باتجاه مركز المتابعة في نيروبي؛ عاصمة كينيا.

كانت هناك استمارات كثيرة عليهم ملؤها. كل شيء كان مدهشاً بالنسبة لسالڤا، لأنه كان منهكاً من النعاس، مما جعله غير قادر على استيعاب كل ما كان يجري.

لكن، كانت هناك لحظة واضحة: عندما أُعطي ملابس جديدة. في المخيم كان يرتدي شورتاً قديماً، وبلوزة قطنية أقدم منه، أيضاً. كان يعتني بهما جيداً، قدر الإمكان، لكن كان هناك ثقوب في القميص، وحزام الشورت رثٌّ. كان عمال

المخيّم يسَلِّمونهم الملابس كلما أتت تبرعات، ولكنها لم تكن تكفي المحتاجين منهم مهما بلغت قيمتها.

أصبحت يدا سالڤا الآن ممتلئتين بالملابس الجديدة. ملابس داخلية، وجوارب، وأحذية رياضية، وبنطال طويل، وقميص قطني وقميص بأكمام طويلة ليرتديه فوقه. وكان عليه أن يرتديها كلها معاً!

قال عامل الإغاثة: «*الطقس في أمريكا الآن شتاء*».

ردّد سالڤا: «*شتاء؟*»

«*نعم. بارد جداً. سوف يعطونك ملابس أكثر في نيو يورك*».

هزّ سالڤا رأسه. (*كيف يمكن لي أن ألبس أية ملابس أخرى؟*)

كان من الصعب أن يصدّق سالڤا ما يراه، عندما صعد الطائرة في نيروبي. لكل شخصٍ مقعد. وكلهم لديهم حقائب، أيضاً. ومع كل هؤلاء الناس، وتلك الكراسي المبطّنة، وتلك الأمتعة، كيف يمكن للطائرة أن تُقلِع من الأرض؟

على أيِّ حال، فقد حَلَّقت الطائرة - ليس كطائرٍ يرتفع بخفّة، وبصفقةٍ سريعة من جناحيه، وإنما بأصواتِ وضجيجِ المحرّكات العالي، حالما تحركت على مدرج الإقلاع، وكأنها تبذل جهداً لتنطلق في الهواء.

وحالما انطلقت الطائرة بسلام، حدّق سالڤا في المشهد خارج النافذة الصغيرة. كان العالم كبيراً جداً، بينما كل شيء فيه صغير جداً! غاباتٌ، وصحاري ضخمة بدت وكأنها بقعٌ صغيرة بالبني، والأخضر. السيارات تزحف على الطرقات مثل أرتال النمل. وهناك الناس، بالآلاف، لكنه لم يكن يرى أيّ واحدٍ بمفرده.

«هل تريد شراباً؟»

نظر سالڤا إلى الأعلى، حيث المرأة بجانب مقعده، بلباسها الموحّد الأنيق، وهزّ رأسه؛ بمعنى أنه لم يفهم. ابتسمت وقالت:

«كوكا-كولا؟ عصير البرتقال؟»

(*كوكا-كولا* **!)** منذ زمن بعيد، كان والد سالڤا قد أحضر معه بضع زجاجات من الكوكا-كولا عند عودته من السوق. كان طعمها مذهلاً - مع تلك الفقاعات التي تتراقصُ داخل فمه! كم كانت مُتعةً نادرة.

قال سالڤا: **«***كوكا كولا* **...** *شكراً»* ومع كل رشفة منها كان يتذكر عائلته، ويمرّر الزجاجة بين يديه، ضاحكاً من الفقاعات التي تدغدغه، وتشاركه الضحك معاً...

كانت الرحلة إلى موطن سالڤا الجديد تستلزم ليس فقط طائرة واحدة، ولا اثنتين، بل ثلاث طائرات. الأولى طارت من نيروبي إلى فرانكفورت، في بلدٍ تسمّى ألمانيا. وحطّت بارتطام مُنذِرٍ، وتوقفت بقوة، مما جعل سالڤا يسقط أرضاً في مقعده؛ فشدّه حزام الأمان الذي يمسكه حول بطنه.

ثم استقلّ طائرة أخرى من فرانكفورت إلى مدينة نيو يورك. تلك، أيضاً، حطّت بقوة، لكن سالڤا كان مستعداً هذه المرّة، فتمسّك بإحكام بمسند المقعد.

في نيويورك، قادهم عمال الإغاثة إلى بوابات مختلفة. بعضها ستكون الخطوة الأخيرة في رحلتهم بمفردهم، بينما كان الآخرون ضمن مجموعات من اثنين، أو ثلاثة. كانت وُجْهَةُ سالڤا وحده إلى روتشستر. قال عامل الإغاثة إن عائلته الجديدة سوف تكون بانتظاره هناك.

كان معظم المسافرين إلى روتشستر رجالاً يسافرون بمفردهم. لكن، هناك بعض النسوة، أيضاً، وبضع عائلات - آباء، وأمهات وأطفال. معظم الناس كانوا من ذوي البشرة البيضاء؛ كان سالڤا قد رأى، بدءاً من مطار فرانكفورت، أناساً من البيض، في الساعات القليلة الماضية، أكثر مما رآه طوال حياته.

حاول ألا يحدق بهم، لكنه، لم يستطع تجنّب تَفَحُّص العائلات عن قرب.

(ماذا لو كانت عائلتي الجديدة ليست هناك؟ ماذا لو غيروا رأيهم؟ ماذا لو التقوا بي ولم يحبوني؟)

أخذ سالڤا نَفَساً عميقاً. ذكّر نفسه بالقول:

(خطوة في وقتها... هذه الرحلة فقط، وتصل، أما الآن...)

وأخيراً، حطّت الطائرة، وعلا صوت عجلاتها، بينما تشبّث سالڤا بمسند المقعد، وجهّز نفسه لما هو قادم.

كانوا هناك يلوّحون مبتسمين في بهو المطار - عائلته الجديدة!

الأب: كريس، والأم: لويزا، وأربعة أطفال. أي سيكون لدى سالڤا إخوة، تماماً كما كان من قبل.

شعر بالارتياح قليلاً، بحِمْلٍ نَزَلَ عن كاهِلِهِ عند رؤيته لابتسامتهم الملأى بالشوق.

ردّد سالڤا كلمتيّ: «*مرحباً... وشكراً*» عدة مرات، لأنه، في حالة التعب، والارتباك التي كان عليها، تلك الكلمات هي الوحيدة التي كان واثقاً منها. لم يكن يفهم ما يقوله أيُّ واحدٍ منهم، ولا سيما لويزا، التي كانت تتكلم بسرعة، حتى ظنّ في البداية أنها لا تتحدث الإنكليزية، أساساً.

نعم، كان لديهم ملابس كثيرة له، حقيقةً! - جاكيت مبطّنة كبيرة، وقبّعة، وشال، وقفازات. ارتدى الجاكيت، وسحب السحّاب للأعلى. الأكمام ضخمة، حتى إنه شعر بعدم القدرة على تحريك ذراعيه بسهولة. تساءل فيما إذا كان يبدو الآن بليداً، إذ جسمه وذراعاه يبدوان بالضخامة التي لا تتناسب مع ساقيه النحيلتين. لكن لم يكن أيُّ واحدٍ من العائلة يسخر منه، ولاحظ على الفور أن الجميع يرتدون نمط الجاكيت نفسه.

انسحبت أبواب مخرج المطار الزجاجية وانفتحت. فضرب النسيم البارد وجه سالفا، كصفعةٍ لم يكن قد أحسّ بهذه البرودة من قبل! لأنه في تلك المنطقة من إفريقيا، التي كان قد عاش حياته فيها، قلّما كانت درجات الحرارة تنخفض عن سبعين درجة. وعندما استنشق الهواء، أحسّ بأن رِئَتَيْه سوف تتجمّدان حُكْماً، وتتوقّفان عن التنفس. ولكن جميع من حوله كانوا يمشون، ويتحدثون، ويتنقلون. بالتأكيد، هناك إمكانية للعيش في درجات الحرارة المنخفضة تلك، وقد استوعب الآن الحاجة إلى الجاكيت المبطّنة الضّخمة.

وقف سالفا ساكناً بضع دقائق داخل أبواب المخرج. تاركاً للمطار أن يحتفظ بحياته القديمة، للأبد - السودان، قريته، عائلته... امتلأت عيناه بالدموع، ربما بسبب الهواء البارد الذي نفذ من الباب المفتوح. كان أفراد عائلته الجديدة قد خرجوا قبلَه؛ استداروا، ونظروا إليه. رَمَشَ سالفا دموعه من عينيه، وانطلق بالخطوة الأولى نحو حياته الجديدة، في أمريكا.

الفصل السادس عشر

جنوب السودان / ٢٠٠٩ /

بعد الدهشة لرؤية تدفق المياه، عاد أهل القرية إلى العمل. وتجمّع عدد من الرجال أمام بيت نايا، ومعهم أدواتهم؛ معاول، ومجارف، ومناجل. فخرج والدها لملاقاتهم. مشى الرجال معاً نحو بقعة خلف الشجرة الثانية الكبيرة، وبدؤوا بتنظيف الأرض. راقبتهم نايا لبضع لحظات. رآها والدها، ولوّح لها بيديه. وضعت الوعاء البلاستيكي على الأرض، وهُرعت باتجاهه.

«بابا، ماذا تفعلون؟»

«نُسَوّي الأرض هنا، كي تصبح جاهزة للبناء».

«تبنون ماذا؟»

ردّ والد نايا مبتسماً: هلّا تخمّنين؟»

الهيئة العامة السورية للكتاب

روتشستر، نيويورك

١٩٩٦-٢٠٠٣

مضى على وجود سالڤا في روتشستر نحو الشهر، ولم يرَ حتى تاريخه، أي طريق ترابي، على عكس ما هو في جنوب السودان. يبدو أن كل الطرق هنا في أمريكا معبّدة. أحيانا تسمع أزيز السيارات التي تمرّ مسرعة واستغرب أن كل شخص يمكن أن يَعْبُرَ بأمان. أخبره والده الجديد أن الطرق الترابية موجودة في الأرياف، لكن ليس هناك أيّ منها في الحيّ الذي يقطن فيه سالڤا.

كل الأبنية مجهّزة بالكهرباء. أناس بيض في كل مكان. ويستمر تساقط الثلج من السماء لعدة ساعاتٍ متواصلة، ثمّ يبقى على الأرض لأيام. وأحياناً يبدأ بالذوبان في اليوم نفسه، ولكن قبل أن يتلاشى كله، يتساقط ثلج آخر. كانت أمّه الجديدة، لويزا، قد أخبرته بأنه لن يذوب الثلج تماماً، قبل أن يحل شهر نيسان - بعد ثلاثة أشهر.

كانت الأسابيع الأولى من حياة سالڤا الجديدة مذهلة، فقد كان ممتنّاً لدراسته. إذ كانت دروسه، وخاصة في اللغة الإنكليزية، قد أعطته شيئاً ما ليصبّ اهتمامه عليه، وسيلة ليكبح الارتباك لساعة، أو ساعتين متواصلتين. ساعدته عائلته الجديدة، أيضاً. فكل منهم كان ودوداً معه. ويفسّر له، بأناةٍ وصبرٍ ملايين الأشياء التي يحتاج أن يتعلمها.

لقد استغرقت رحلة سالڤا أربعة أيام من مخيّم إيفو للاجئين إلى بيته الجديد في نيويورك. مرت بعض الأوقات كان من الصعب أن يصدّق أنه ما زال على الكوكب نفسه.

والآن، بعد أن تعلّم سالڤا عدداً ليس بالقليل، من الكلمات البسيطة، وجد اللغة الإنكليزية مُربِكة؛ فمثلاً الحروف "o-u-g-h" هي نفسها تُكتَب بنفس الترتيب في كلمات مختلفة اللفظ! مثل:

(rough- though- fought…through….bough)

أو كيف تتغير كلمة ما بحسب الجملة؛ فمثلاً تقول كلمة "chickens" عندما تَعْني الطيور الحَيّة التي تمشي، وتنقنق، وتضع البيوض، ولكنها تقال "chicken" - بلا حرف s- عندما تَعني الدجاج الذي يُطهى لكي تأكله في طبقك: فمثلاً تقول:

"We're having **chicken** for dinner" (**)

حتى لو كنت قد حضّرت عشرة منها. وأحياناً كان يحار فيما إذا أمكن أن يصبح قادراً على أن يجيد التحدّث والقراءة باللغة الإنكليزية. ولكن، رويداً، رويداً، وبساعاتٍ من العمل الجاد، وعبر شهورٍ، وأعوام، تحسّنت لغته الإنكليزية. وتذكّر ميشيل، أيضاً، عندما انضم سالڤا إلى فريق الكرة الطائرة. كان لعب كرة الطائرة مسلياً، تماماً كما كان في المخيّم. فتجهيز الكرة، وضربها هو ذاته بكل اللغات.

(**) أيضاً الترجمة لن تخدم المعنى، لأن المقصود هو خصوصية اللغة في تصريف الكلمة بحسب استخدامها باللغة نفسها. **(المترجمة)**

مضى على وجود سالڤا الآن ست سنوات في روتشستر. فقد دخل الجامعة، وقرر أن يدرس الأعمال. كانت لديه فكرة مُبهمة، وهي العودة إلى السودان يوماً ما، ليساعد الناس الذين يعيشون هناك.

أحياناً، كانت تلك الفكرة تبدو مستحيلة. ففي بلاده الكثير من الحروب، والدمار، والفقر المدقع، والأمراض، والفاقة - العديد من المشاكل التي لم تحلّها الحكومة، أو الأغنياء، أو المساعدات الكبرى من المنظمات. فماذا يمكن أن يفعل هو لكي يساعد؟ فكّر سالڤا كثيراً بهذا السؤال، لكن دون أن يلقى جواباً.

وفي أحد الأيام، وبعد يومٍ طويل من الدراسة، جلس سالڤا إلى كمبيوتر / حاسوب العائلة، وفتح بريده الإلكتروني. دُهش لرؤية رسالة من ابن عمٍّ له - شخصٌ معرفته به ضئيلة. وكان ذلك القريب يعمل لدى وكالة غوث في زمبابوي.

نقر سالڤا على فتح الرسالة. قرأ الكلمات، لكنَّ عقله لم يستوعبها في البداية.

«... عيادة الأمم المتحدة.... أبوك... جراحة في المعدة...»

كرّر سالڤا قراءة الكلمات أكثر من مرة. ثم قفز على رجليه وهو يركض في المنزل، فوجد كريس ولويزا، صرخ: ***«أبي...! لقد وجدوا أبي!»***

وبعد تبادل الرسائل الإلكترونية العديدة، تبين له أن ابن عمّه لم يكن قد رأى، أو كلّم أباه. وإنما العيادة التي كان والده يتعالج فيها، هي في مكانٍ ناءٍ في جنوب السودان. لم يكن هناك خدمة هاتف، أو بريد إلكتروني - ليس هناك أية طريقة للتواصل مع طاقم العيادة. كان لدى الطاقم قائمة بأسماء

المرضى الذين يعالجونهم. وهذه القوائم ترسل إلى وكالات الغوث التابعة للأمم المتحدة. وابن عم سالڤا كان يعمل لدى إحدى هذه الوكالات، ورأى اسم أبي سالڤا في القائمة.

بدأ سالڤا، على الفور، التحضير للسفر إلى السودان. لكن بسبب الحرب التي كانت ما تزال دائرة هناك، كان من الصعب إجراء التدابير اللازمة لذلك. فعليه أن يحصل على الإذن، والعشرات من الاستمارات يجب أن يملأها، وتأمين رحلات طيران، وسيارة نقل في المناطق التي لا يتوفر فيها خدمة الطيران، أو الطرقات.

قضى سالڤا وكريس ولويزا ساعاتٍ بالتواصل على الهاتف مع عدة مكاتب ووكالات. واستغرق ذلك ليس فقط ساعاتٍ، أو أياماً، بل شهوراً، قبل أن تصبح كل الخطط موضِعَ التَّنفيذ. ولم يكن هناك طريقة لإرسال رسالة إلى المستشفى. كان سالڤا أحياناً، يشعر باليأس عند أي تأخير، أو فشل.

(ماذا لو غادر والدي المستشفى دون أن يخبر أحداً إلى أين سيذهب؟ ماذا لو وصلتُ هناك متأخراً؟ فلن أتمكن من إيجاده مرة أخرى...)

وأخيراً، تمت تعبئة كل الاستمارات، وتنظيم كل الأوراق اللازمة. وطار سالڤا على متن طائرة نفّاثة إلى نيو يورك، وأخرى إلى أمستردام، وثالثة إلى كامبالا؛ في أوغندا. وفي كامبالا، استغرق يومين لكي يصل إلى حدود الجمارك، والهجرة، قبل أن يقلع على متن طائرة صغيرة إلى جوبا، جنوب السودان. ثم استقلّ سيارة جيب على طريق ترابي، مغبرّ، في الأحراج.

كم كان كل شيءٍ مألوفاً بالنسبة له، وكم هو مختلف! الطرق غير المعبّدة، الأحراج، والأشجار المقزّمة، الأكواخ المسقوفة بالأعواد المربوطة

فيما بينها - كل شيء كان كما يتذكّره سالڤا، وكأنه لم يغادره إلا البارحة. وفي الوقت نفسه، كانت ذاكرته بعيدة عن حياته في السودان. كيف يمكن للذاكرة أن تكون قريبة، وبعيدة في الوقت نفسه؟

وبعد ساعات من الرجرجة، والاهتزاز بالسيارة الجيب، على طول الطريق - وبعد أسبوع تقريباً، من الرحلة المرهقة - دخل سالڤا الكوخ الذي كان يُسْتَخدَمُ كغرفة إنعاش، في المستشفى المتنقّل. وقف رجل أبيض لاستقباله. قال سالڤا:

«مرحباً، أنا أبحث عن مريضٍ اسمه معوان دوت آريك».

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل السابع عشر

جنوب السودان / ٢٠٠٩ /

سألها والدها مبتسماً: «*ماذا تعتقدين أننا نبني هنا، يا نايا؟*»

«*منزل؟ أو حظيرة؟*» خمّنت نايا!

هزّ والدُها رأسهُ، وقال: «*شيء أفضل... مدرسة*».

اتسعت عينا نايا. فأقرب مدرسةٍ كانت على مسافة مسير يوم ونصف، من منزلها، لتصل إليها. تعرف نايا ذلك، لأن ديب كان يريد أن يذهب إليها، لكنها بعيدة جداً.

فردّدت: «*مدرسة؟*»

ردّ الأب قائلاً: «*نعم. ومع البئر هنا، لن يحتاج أحد أن يذهب إلى البركة بعد ذلك. فالأطفال، كلهم، سوف يتمكنون من الذهاب إلى المدرسة*».

حدّقت نايا بأبيها، وفمُها مفتوحٌ، ولكن دون أن تنْبَسَ ببنت شفة... وعندما تمكنت من الكلام بعدئذٍ، تكلمت همساً فقط، وقالت:

«*كل الأطفال، يا بابا؟ والبنات، أيضاً؟*»

اتسعت ابتسامة والدها، وقال: «*نعم يا نايا. والبنات أيضاً. والآن، اذهبي، وأحضري لنا الماء. ثم عاد إلى عمله في إزالة العشب بالمنجل*».

أما نايا، فعادت والتقطت الوعاء البلاستيكي. كانت تشعر وكأنها تطير.

(مدرسة...! سوف نتعلم القراءة والكتابة).

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

السودان وروتشستر، نيو يورك

٢٠٠٣ - ٢٠٠٧

وقف سالڤا بجانب إحدى قوائم السرير، في العيادة المكتظّة، وقال: *«مرحباً»*

«ردّ المريض بحياءٍ: «مرحباً»

قال سالڤا: *«أتيت لزيارتك»*.

ردّ المريض عابساً: *«تزورني؟ ومن أنت؟»*

«أنت معوان دوت آريك، أليس كذلك؟»

«نعم، هو ذا اسمي».

ابتسم سالڤا، وكان يرتجف بداخله. مع أن والده كان يبدو أكبر سنّاً الآن، فقد تذكّره سالڤا مباشرة. ولكن، وكأن عينَيْه كانتا بحاجةٍ للتأكّد؛ بالسمع - كان بحاجةٍ لأن يسمع كلمات والده ليصدّق أنه على يقين.

«أنا ابنك... أنا سالڤا»

نظر الرجل إلى سالڤا وهزّ رأسه وقال: *«لا... هذا مستحيل»*.

قال سالڤا: *«نعم. هذا أنا يا أبي»*. وانتقل إلى جانب السرير.

مدّ معوان دوت يدَه حتى وصلت ذراع هذا الغريب، الطويل بقربه، وهمس: *«سالڤا؟ هل يمكن أن تكون أنت حقاً؟»*

انتظر سالڤا. وحدّق معوان دوت للحظة طويلة، ثم صرخ:

«*سالڤا...! ولدي، ولدي...!*»

واهتز جسده بنوباتٍ من الفرح، وتمكّن من أن يصل إلى سالڤا، ويعانقه بقوّة.

لقد مضى تسعة عشر عاماً الآن، منذ أن رأى أحدهما الآخر.

رشّ معوان دوت الماءَ على رأس ولده؛ طريقة الدّنكا بمباركة الشخص الذي يكون مفقوداً، ثم يجدونه.

قال معوان دوت: «*كلهم كان متأكداً من أنك ميت. كان أهل القرية سيذبحون بقرة لأجلك*».

هكذا كان الناس في قرية سالڤا يواسون في موت من يحبون.

«*ولم أشأ أن أسمح لهم. لم أفقد الأمل قطّ، بأنك ما زلت حياً، في مكانٍ ما*».

ثم سأل سالڤا، وبشيء يسير من الأمل: «*و... أمي؟*»

ابتسم والده، وقال: «*هي هناك، في القرية*».

كان سالڤا يريد الضحك، والبكاء، في آنٍ معاً، ويحتفظ بالقوة الكافية ليمشي المسافة الطويلة إلى البيت. تعهّد سالڤا قائلاً: «*سوف آتي إلى القرية حالما تصبح آمنة*».

وردّ والده الوعد، قائلاً: «*سوف نكون بانتظارك*».

أدارَ سالڤا وجهه باتجاه وجه أبيه تماماً، وتعانقا للوداع، والدموع تنهمر ممتزجة من عَيْنَيْهِما.

وعلى متن الطائرة، العائدة به إلى الولايات المتحدة، كان سالڤا يستعيد بذاكرته كل لحظة من زيارته لأبيه. وشعر مرةً أخرى بالبرودة على حاجبيه عندما رشّه على رأسه بالماء، لمباركته.

وهناك خطرت بباله فكرة - الفكرة هي كيف يمكن أن يساعد الشعب السوداني.

هل يمكن أن ينفّذها؟ سوف تحتاج إلى الكثير من العمل! وربما تكون صعبةً جداً. ولكن، كيف له أن يعرف دون أن يحاول؟

وحالَ عودته إلى روتشستر، بدأ سالڤا يعمل على دراسة الفكرة. كان هناك على ما يبدو، ملايين المشاكل تحتاج إلى الحل. ويحتاج إلى كثيرٍ من المساعدة. وقد أعطاه كريس، ولويزا عدة اقتراحات. وكان أحد أصدقائهم، ويدعى سكوت، خبيراً بإعداد المشاريع التي تشابه ما كان يفكّر به سالڤا. فعمل، هو وسالڤا، لساعاتٍ، وأيامٍ... بل امتدت لأسابيعَ، وشهور. وخلال ذلك، التقى سالڤا أناساً آخرين أرادوا المساعدة. وكان ممتنّاً لهم جميعاً. ولكن، حتى مع مساعدتهم، كان العمل أكبر بكثير مما كان يتصوّر. كان على سالڤا أن يجمع تبرّعات، كانت تتم فقط بطريقة واحدة: كان عليه أن يتكلم مع الناس، ويطلب منهم المال.

كانت المرة الأولى التي تحدّث بها سالڤا أمام الجمهور، في ندوة مدرسة. وأتى نحو مِئة شخص ليستمعوا إليه. كان هناك مكبر صوتٍ أمام الغرفة. كانت ركبتا سالڤا ترتجفان وهو يسير باتجاه المكبّر. فقد كان يعلم أن لغته الإنكليزية ما تزال غير جيدة.

(ماذا لو ارتكب أخطاءً في اللفظ؟ ماذا لو لم يستطع الحضور أن يفهمه؟)

لكن، كان مجبراً على القيام بذلك. فإذا لم يتحدّث عن المشروع، لن يعلم به أحد. ولن يتبرّع أحد بالمال، ولن يتمكن حينئذٍ من أن يعمل ليضعه موضِع التنفيذ.

تكلّم سالڤا من خلال مكبّر الصوت، قائلاً: «م... م... مرحباً،» اللحظة نفسها حصل عطل مفاجئ في جهاز الصوت. وأصدرت المكبّرات التي خلفه صريراً مزعجاً. فقفز سالڤا، وكان يوشك أن يرمي مكبر الصوت من يده.

نظر إلى الجمهور، ويداه ترتجفان. كان الناس يبتسمون، وبعضهم يضحكون خلسة، وبضعة أطفال كانوا يغلقون آذانهم. كان الجميع يَبدون متعاطفين، ورؤية الأطفال جعلته يتذكّر، بأنها ليست المرّة الأولى التي يتحدّث فيها أمام جمعٍ كبيرٍ من الناس.

فقبل سنواتٍ، عندما كان يقود مجموعة الأطفال في مسيرهم من مخيم اللاجئين في إثيوبيا إلى المخيّم الموجود في كينيا، إذ كان يدعو لاجتماعٍ كل صباحٍ ومساء. وكان الأولاد يصطفّون أمامه، ويتحدّث إليهم عن خططهم.

كانت كل تلك العيون تنظر إليه... ولكن، كل منهم كان مهتمّاً بما سيقول. والأمر نفسه هنا، فقد أتى الجمهور إلى كافتيريا المدرسة لأنهم يريدون أن يستمعوا إليه. وقد شعر بالتحسّن وهو يفكّر بكل ذلك، وعاد وانطلق بالتحدّث عبر المكبّر مرةً أخرى. وأعاد الترحيب، قائلاً: «مرحباً» وانطلق صوته فقط، دون ضجيج هذه المرّة، مسموعاً عبر المكبّرات. وابتسم بارتياح، فتابع قائلاً:

«أنا هنا لأحدّثكم حول مشروع بخصوص جنوب السودان».

وبعد عامٍ، ثم عامين... فثلاث، كان سالڤا يتحدّث إلى المئات من الناس - في الكنائس، والمنظّمات المدنية، وفي المدارس. هل يمكن أن تتحقق فكرته يوماً ما؟ ومتى وجد نفسه يفقد الأمل، كان سالڤا يأخذ نَفَساً عميقاً، ويفكّر بكلمات عمّه؛

(خطوة في حينها. مشكلة في وقتها - فكّر فقط بتلك المشكلة).

ويوماً بعد يوم، بحلّ مشكلة واحدة في وقتها، انطلق سالڤا نحو هدفه.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل الثامن عشر

جنوب السودان / ٢٠٠٩ /

انتظرت نايا دورها ضمن الرّتل، وهي تحمل زجاجة بلاستيك.

لقد انتهى العمل بالبئر، أخيراً. ووُضِعت الحصى لبناء الأساس، ورُكِّبَت المضخّة، ثم سُكِبَ الإسمنت فوقها، وتُرِك حتى يجفّ.

وقبل أن تُستخدم المضخة للمرّة الأولى، تجمّع أهل القرية حولها. وأحضر رئيس العمال لوحة كبيرة مصنوعة من الكنقا الأزرق، وعليها كتابة، كانت باللغة الإنكليزية، ولكن رئيس العمال تحدّث إلى عم نايا، وأخبر العمّ بدوره الناسَ ماذا كانت تعني تلك اللوحة. فقال:

«تكريماً لمدرسة إلم ستريت، وهو اسم مدرسة في أمريكا، قام تلامذتها بجمع التبرعات لكي يتم حفر هذه البئر».

ومسك عمي اللوحة من طرف واحد، بينما رفع رئيس العمال طرفها الآخر. فتجمع الحشد كلهم حولها، وقام أحد العمال بالتقاط صورة لهما. وسوف يتم إرسال تلك الصورة إلى المدرسة الأمريكية، لكي يرى التلاميذ البئر التي حُفِرَت، والناس الذين يستخدمونها الآن.

ثم اصطفّ أهل القرية في الرتل، ينتظر كل واحدٍ منهم دوره ليحصل على المياه من البئر. وعندما وصلت نايا إلى مقدمة الرتل، ابتسمت بحياءٍ في

وجه عمها، الذي توقف للحظةٍ عن عمله كي يبادلها الابتسامة. ثم بدأ يحرّك يد المضخة للأعلى، ثم للأسفل...

تدفّق سيلٌ من الماء من فوهة المضخّة. أمسكت نايا بزجاجتها تحت فوهة المضخّة، فامتلأت بسرعة.

وتراجعت خطوة لأجل الشخص الذي يليها، كي يملأ زجاجته، ثم شربت. كانت المياه عذبة. لم تكن ساخنة، أو موحلة، مثلما كانت مياه البركة. بل باردة نقية.

توقفت نايا عن الشرب، ورفعت زجاجتها للأعلى، كي تنظر إليها. من المضحك أن هذا الشيء الذي لا لون له يبدو جميلاً. ثم شربت بضع رشفاتٍ، وتلفّتَت حولها. الجميع يحملون زجاجاتٍ أو كؤوساً. كانوا يشربون تلك المياه اللذيذة، أو ينتظرون في الرتل للحصول على المزيد، أو يتحدثون ويضحكون. كان احتفالاً.

كان هناك رجل عجوز يقف، ليس بعيداً عن نايا، يهزّ رأسه، وبصوتٍ عالٍ، قال: *«هنا، حيث كنا نتجمّع من أجل احتفالات موقد النار. لطالما جلست على هذه الأرض طوال حياتي. ولم أعرف عبر كل تلك السنين أنني كنت أجلس أعلى هذه البئر!»*

ضحك الجميع من حوله، ونايا أيضاً، ضحكت.

وخلال الأيام القليلة القادمة سوف ينتهي العمل بالمدرسة. سوف يذهب كل من نايا، وديب، وآكير إلى المدرسة، مع باقي الأطفال. وفي العام القادم، سوف يكون هناك سوق، يذهب إليه أهل القرية ليبيعوا، ويشتروا الخضار، والدجاج، والسلع الأخرى. وهناك حديث عن عيادة طبية، يوماً

ما - عيادة طبية توفّر لهم الرعاية الطبية دون أن يضطروا للسير بعيداً طلباً للرعاية الصحية، كما اضطروا يومَ مَرِضَت آكير.

كانت البئر هي ما جلب للقرية كل هذه الأشياء الجيدة.

لكن البئر لم تكن لهم وحدهم كي يستفيدوا منها. سوف يأتي الناس من مسافات أميال في الجوار لكي يُحضِروا منه الماء النقي العذب. علمت نايا من خلال إصغائها للكبار، أن رئيس فريق العمل قد قام بجمع المال من أجل بناء هذه البئر. وما من أحدٍ أبداً يرفض الماء. سوف توكل مهمة صيانة البئر للبعض من أبناء القرية. سوف يشغلهم هذا العمل الجديد، لذا يتوجب على كل أهل القرية أن يساعدوهم في محاصيلهم، وقطعانهم. أما الآخرون، ومنهم عمّ نايا، فسيكون مسؤولاً عن حلّ أي نزاعٍ قد ينشب بينهم.

سوف تغيِّر البئر حياتهم من عدة نواحٍ. وجال في خاطر نايا:

«لم أعد بحاجة للسّيرِ إلى بركة الماء لإحضار المياه». وتجولت في المكان قليلاً، وهي ترتشف الماء العذب، البارد. ثم استرقت نظرة إلى رئيس العمال. كان يقف وَحدَه، متّكئاً إلى إحدى الآليات، يراقب عمَّها وهو يشغّل المضخّة. رآها ديب وهي تنظر إلى الرجل، فقال لها:

«ذاك الرجل هو رئيس العمال. أتعلمين أنه من الدّنكا؟»

لم يكن أهل الدّنكا وأهل النُّوَيْر يختلفون كثيراً من الناحية البدنية. فما عليك إلا أن تنظر إلى الوشم على الوجوه كي تخمّن ما هي القبيلة التي ينتمون إليها - نمط الوشم على وجوه الدّنكا كان مختلفاً عنه في وجوه أهل النُّوَيْر.

لكن رئيس فريق العمل لم يكن يحمل وشماً على وجهه. وكانت نايا قد سمعت عن ذلك لدى بعض المراهقين الشباب - مستغربةً لماذا لا يحمل مثل ذلك الوشم على وجهه بعد أن كَبُر تماماً، وأصبح رجلاً. كان مساعد الرئيس من النُّوَيْر، وكذلك معظم أفراد الفريق - وكلهم يحملون وشم النُّوَيْر. لم يشغل ذلك بال نايا كثيراً، لكنها علمت الآن أنها لطالما اعتقدت أن رئيس العمال هو من النُّوَيْر، أيضاً.

كان كل من الدّنكا، والنُّوَيْر أعداءً - منذ مئات السنين. وتساءلت بصوتٍ مرتفع: *«لماذا يُؤمّن شخصٌ من الدّنكا الماء لنا؟»* فقال ديب: *«أنا سمعت عمي وأبي يتحدّثان عنه. فقد حفر عدة آبار لخدمة شعبه. وقرر هذا العام أن يحفر بئراً لأهل النُّوَيْر، كذلك»*.

وفكّرت نايا: لم يجب ديب، حقيقةً، على سؤال نايا. *(ربما هو لا يعرف الجواب)*. لكن نايا شعرت أن شيئاً ما عليها أن تقوم به. فمشت إلى حيث كان الرجل واقفاً، لم يلاحظ وجودَها في البداية، لذا انتظرت بهدوء.

ثمّ رآها، فحيّاها: *«مرحباً»*.

عَلا مُحيّاها الحياءُ، لِلَحظةٍ، لم تعتقد أنها ستكون قادرة على الكلام. وأطرقت نظرها إلى الأرض، ثم إلى جدول الماء الذي كان ينساب من فوهة المضخّة. فاستعادت صوتَها، ونظرت إليه بجرأة، وقالت: *«شكراً. شكراً لأنك جلبت لنا الماء»*.

ابتسم الرجل، وسألها: *«ما اسمك؟»*

«أنا... نايا».

فقال: ***«سررت بمعرفتك. اسمي... سالڤا...»***

رسالة من سالڤا دوت

هذا الكتاب يستند إلى قصة حياتي الحقيقية. وآمل من خلاله أن يتعرّف الناس إلى **المشرّدين**، وبلدي السودان.

لقد ولدت في قرية صغيرة تدعى لون-آريك في ريف الطّنج، جنوب السودان. وتماماً، كما ورد في هذا الكتاب، كنت قد مَكَثْتُ في مخيّمات اللاجئين في إثيوبيا، وكينيا، لعدة سنوات قبل أن آتي إلى أمريكا.

أدين بالشكر لكثير من الناس العظماء. والأمم المتحدة والصليب الأحمر الدولي، الّذين أنقذوا حياتي عندما كنت أتضوّر جوعاً. إذ استقبلني كل من عائلة مور، وكنيسة القديس بول ابيسكوبال، ومجتمع روتشستر، نيو يورك في الولايات المتحدة الأمريكية. كما أنني ممتنّ للتعليم الذي تلقيته، ولا سيما في كلية مونرو الاجتماعية.

والشكر الأكبر إلى الناس الذين ساعدوني في مشروعي، **المياه من أجل السودان** - والمدارس، والكنائس، ومنظمات المجتمع المدني، والأشخاص في كل أنحاء البلاد. شكر خاص إلى **جمعيّة المياه من أجل السودان**، ونوادي الروتاري(***)، الذين تعاونوا معي عن كَثَب. وقد تحققت أحلامي في أن أقدم المساعدة لشعب بلدي، السودان.

(***) نوادي الروتاري: جمعية خيرية عالمية من رجال الأعمال وسيدات الأعمال والمهنيين، تأسست عام ١٩٠٥. **(المترجمة)**

لقد تخطّيت، بالأمل والعزيمة، كل الصعوبات التي كانت في الماضي. لم أكن لأتجاوزَها لولاهما. أودّ أن أقول للشباب:

عندما تزداد الصِّعاب، أو تتجه عكس ما تريدون، تحلّوا بالهدوء. سوف تتجاوزونها بالعزيمة بدلاً من الإحباط. الإحباط يقود إلى مزيدٍ من قلة السعادة في الحياة، عكس العزيمة والأمل.

سالڤا دوت

روتشستر، نيو يورك

الهيئة العامة السورية للكتاب

كلمة الكاتبة

ليندا سو بارك

كُتبت بعض التفاصيل في هذه القصة بشيء من الخيال. لكن معظم أحداثها، صُوِّرت بناءً على تجارب سالڤا الشخصية. لقد قرأت يومياتِه المكتوبة، والتقيتهُ لساعاتٍ عِدّة. كما أنني قرأت كتباً أخرى عن **المشرّدين**. أما ما يتعلق بالقسم الذي يتحدث عن قصة نايا، فقد تمكنت من لقاء بعض الرحّالة الذين رأوا مياه الآبار التي حُفِرَت في قرى كقريتها؛ كما خدمتني أيضاً من لقطات الفيديو، والصور.

وكما هو معروف، فإن حرب السودانيين المدنية الثانية، الصراع الذي رُصِدَ في هذا الكتاب، نشب في ١٩٨٣. وانخرط بها كثيرٌ من الطوائف، وحصلت تغيرات كبيرة في القيادة خلال فترة الحرب، ولكن في الجوهر، المعارضة كانوا من المسلمين المسيطرين على الحكومة في الشمال وتحالف غير المسلمين في الجنوب.

ملايين البشر قُتِلوا، أو سُجِنوا، أو عُذّبوا، أو اخْتُطِفوا، أو اسْتُعْبِدوا؛ والملايين، أيضاً، أُبْعِدوا بشكل دائم، ولم يعودوا قادرين على العودة إلى منازلهم. ومن بين هؤلاء المُبعدين كان هناك مئات الآلاف ممن يسمّون **(المشرّدون)**، مثل سالڤا، الذي مشى يائساً من جنوب السودان إلى إثيوبيا، ثم كينيا، بحثاً عن الحياة في ملاذٍ آمنٍ.

كثيرٌ من هؤلاء المشردين الذين كانوا قادرين على العودة إلى وطنهم، وجدوا أن عائلاتهم قد اختفت. وآخرون عاشوا أدنى مستويات الحياة في

المخيمات التي سبق أن عاش فيها سالڤا. وبعضهم عادوا، مصادفةً، واجتمع شملهم مع من يحبون، ولكن بعد عقودٍ، ربما.

في عام ٢٠٠٢، أي بعد عشرين عاماً من بدء الحرب، قامت حكومة الولايات المتحدة بإعداد قانون السلام في السودان، الذي يتّهم رسمياً الحكومة السودانية بالإبادة الجماعية، بقتل أكثر من مليوني شخص. وبعد ثلاث سنوات، وُقِّعَت اتفاقية سلام بين الشمال والجنوب. فمُنِح الجنوب الاستقلال - إمكانية الحكم الذاتي - لمدة ست سنوات. وتم اعتماد استفتاء شعبي، يصوّت من خلاله سكان الجنوب على الانفصال عن الشمال، ويصبحون دولة مستقلة.

أما الصراع في دارفور، في الجزء الغربي من السودان، فقد كان صراعاً منفصلاً، وغير مشمول باتفاقية السلام. وفيما يتعلق بهذا الكتاب، فإن تلك الحرب ما تزال دائرة بين المجموعات التي تصنف نفسها على أنهم عرب، وأولئك الذين يعدّون أنفسهم إفريقيين. وكلتا الحربين تزامنتا معاً في سنوات عديدة من القحط الشديد، والمعاناة، غير المعلن عنها، لشعب السودان.

من حيث المساحة، فإن السودان أكبر دولة في إفريقيا، والدولة العاشرة بين الدول الكبرى عالمياً.

* * *

لقد التقى سالڤا عائلته مرتين منذ حدثت أحداث هذه القصة، بما فيها الانتقالُ وَلَمّ شَمْلِهِ مع أبناءِ عمّه جاوير. والمدهش أنَّ سبعة من المشردين الذين رافقوا سالڤا في الطريق من إثيوبيا إلى كينيا، عادوا والتقوا معه عندما أُعيدَ توطينُهم في منطقة روتشستر، نيويورك.

وفي حزيران ٢٠١٠، قامت جمعية سالڤا دوت، غير الربحية، للمياه من أجل السودان، بحفر العشرات من الآبار في جنوب السودان، لأحياء الدّنكا، والنُّوَيْر. وأول بئر حُفِرَت كانت في قريته، لون-آريك. والآن يقضي سالڤا نصف العام في الولايات المتحدة، يجمع خلالها المال من أجل الجمعية، والنصف الآخر في السودان، لحفر آبار المياه.

ولمعرفة المزيد من المعلومات عن عمل الجمعية يمكنك الدخول إلى الموقع التالي: www.waterforsudan.org

أول مرة التقيت فيها سالڤا منذ سنوات عندما سمعنا أنا وزوجي عن جمعية **المياه من أجل السودان**. وسافر زوجي في عام ٢٠٠٨ إلى السودان كي يشاهد الآبار على أرض الواقع. وأنا مدينة له لمساعدته في الردّ على أسئلتي اللامنتهية. ولولاه لما كانت هذه القصة قد كُتِبَت.

أنا وعائلتي نشعر أننا محظوظون لأننا عَدَدْنا سالڤا صديقاً. فقد كان حقيقةً، شرفاً كبيراً لي أن أكتب هذا الكتاب عنه.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

كلمة شكر
(الكاتبة)

جزيل الشكر لكل من:

- عائلة كريس، ولويزا مور، وأبنائهم؛ عائلة سالفا، الأمريكية.
- جون تِرْنَر ونانسي فرانك، وأعضاء آخرين من مجلس جمعية المياه من أجل السودان.
- وجوفري ميد، للفرصة التي منحني إياها في الاطلاع على الصور ولقطات الفيديو.
- وليندا رايت، وسو كاسيرير من شركة بريكفاست سيريالز.
- و وجنغر نولتون، وديفيد بربر، وكل من في شركة كورتيس براون المحدودة.
- ودينا ستيفنسن لأنها كانت تدفعني بلطف، وحزم، ودائماً بالاتجاه الصحيح.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

ليندا سو بارك

(١٩٦٠-....)

- كاتبة وروائية أمريكية في مجال الأطفال؛
- حاصلة على جائزة نيوبري؛
- يعد هذا الكتاب أهم مؤلفاتها.

الهيئة العامة السورية للكتاب

لبانة علي الجندي

- مترجمة سورية؛
- شهادة في الترجمة المحلفة القانونية من وزارة العدل السورية عام ١٩٩٥م؛
- دبلوم تأهيل تربوي من الجامعة الافتراضية السورية عام ٢٠٠٩م.

من أعمالها المؤلفة:

- مجموعتان شعريتان

من أعمالها المترجمة:

- «الأنماط اللغوية الاجتماعية»، دار الحوار، اللاذقية؛
- كتاب قيد الطبع بعنوان: «منهجية التطور البشري؛ بيولوجياً، وثقافياً، واجتماعياً»؛

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب